الأزهر



بين الفكر والتطبيق

للأستاذ الدكتور / محمد البهي

رئيس التحرير

د/ علي أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ربيع الآخر ١٤١٥ هـ

الأزهر

العلمانية والإسلام

بين الفكر والتطبيق

للأستاذ الدكتور / محمد البهي

رئيس التحرير

د/ علي أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ربيع الآخر ١٤١٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

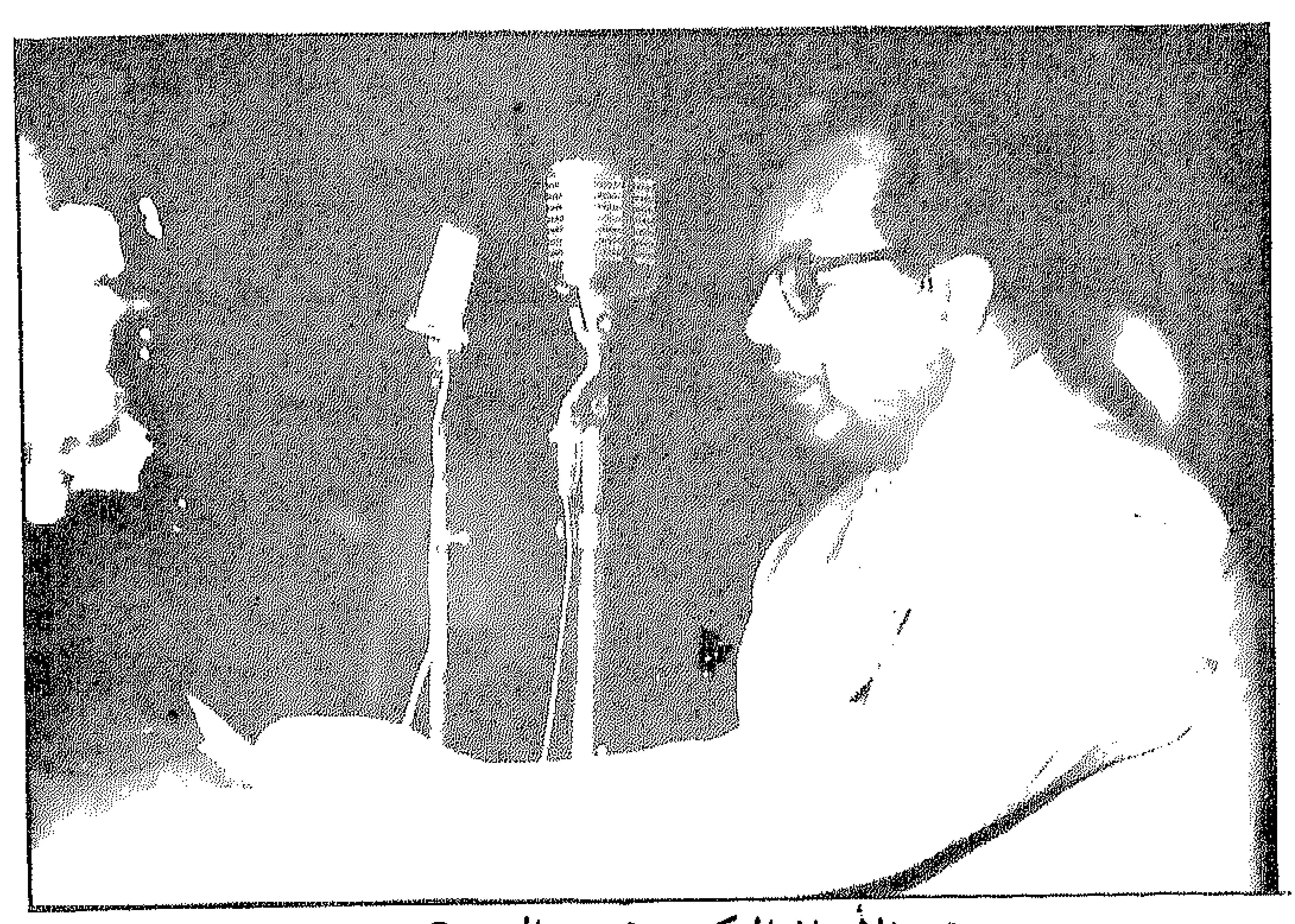
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إهـداء وتاريخ :

ثلاثة لا يَنْسَوْن الأستاذ الدكتور محمد البهى :

تلاميذه الذين تلقوا العلم بين يديه ، فعلموا أَمَامَ مَنْ يحضرون ، وأية « معرفة » يحصلون . كانوا أمام أستاذ فى العقيدة والفلسفة نادراً مايتكرر فإنه إحدى نعم الله على الأزهر ثم العالم الإسلامى .. أخذوا من علمه ، بل ومن كرمه الفيض الغزير ، فلم ينسوا فضله ، ولم يقصروا فى تقديره .

وأصدقاؤه من أهل العلم الذين أدركوا جهاده ، وما بذل من علم ، وما أَوْلَى المسلمين من خبرة بينت لهم خطط أعدائهم ، وما يحيكون من كيد .. ثم هذه الذخيرة العلمية التى أبسط ما يقال فيها : إنها « لازمة » من لوازم الدكتور البهى ، ونتاج عبقريته التى لم ينسج على منوالها من بعد .. والتى سوف تعيش ـ بمشيئة الله ـ تعالى ـ ماعاشت تحمل على جناحيها عبقرية فذة أدت ما عليها من حق ، وقضت ما عليها من واجب .



● الأستاذ الدكتور محمد البهى ●

والمثقفون من قلب العالم وأطرافه الذين قرأوا له فى مشارق الأرض ومغاربها ، مسلمون وغير مسلمين ، فى جامعات عربية أو غربية ، سواء منهم من رضى بدراسات الدكتور البهى واقتنع بها ، أو كان على ميوله الغربية التى أزاح ستارها الدكتور البهى ووَعَى المسلمين بها . وهو وعى لا يرضى عنه عالم الاستعمار ولا تلاميذه العلمانيون الذين يطأون أمانى قومهم بالأقدام ، ويتخلصون من أعرافهم بسهولة .

لقد كنتُ تلميذاً للأستاذ الدكتور البهى .. ولعلى أستطيع أن أكتب عنه أستاذاً ، ولكننى لا أستطيع أن ألمس حياته العائلية كما تقدمها السيدة الجليلة : هدى على الغاياتى زوج الأستاذ الدكتور البهى .. فالكلمة ــ فى هذا الجانب لها .

د . الخطيب

كتبت السيدة تقول :

فى الذكرى الثانية عشرة لرحيل زوجى العزيز أردت إهداء هذا الكتاب للقارىء المسلم ، والعربى .. ووجدت الفرصة التى تسمح لى أن أعبر عن مشاعرى ، وأعرّف القراء بالدكتور ، وبدورى المتواضع فى مؤازرته ليتيسر له أداء رسالته .

ولدت فى « جنيف » من أم فرنسية ، وأب مصرى هو المناضل « على الغاياتى » الذى شارك بجهد جهيد لتنال مصر حقها الذى يعتبر حقا للعالم الإسلامى كله ، يزامله فى هذا الجهاد الشاق « عبد العزيز جاويش » وأتباعه ، وعبد العزيز جاويش هو صاحب كتاب « وطنيتى » هذا الكتاب الذى كتب مقدمته « محمد فريد » وبسببه ذاق مرارة الحبس ستة أشهر .. رحمه الله ــ تعالى .

هذه الباقة المجاهدة التى عملت لمصر وهى لا تنتظر ــ من أحد بعد الله ــ جزاء ولا شكوراً .

كان كفاح والدى من أجل بلاده سبباً فى الحبس والنفى ، وقد استطاع أن يفر إلى « تركيا » ومنها إلى « سويسرا » وفى « سويسرا » تعرف هذا العالم على « والدتى » فى « جنيف » وتزوجها ، ومنذ ذلك الحين وقفتْ إلى جانبه بالجامعة ، ثم كانت إلى جواره حين أسس جريدته « منبر الشرق » الصادرة بالفرنسية ، وكانت والدتى تتولى بنفسها تصحيح كل أعدادها .



● الأستاذ على الغاياتى ●

واستمرت إلى جواره ، ولم يكن أولادهما الخمسة ـ ابن وأربع بنات ـ عامل إعاقة فى كفاح والدى أو معونة والدتى له ؛ فقامت بتربيتنا على خير ما تكون التربية على الرغم من قلة الدخل ومتطلبات الكفاح .

لقد عشنا حياة يغشاها الكفاف ، وتسترها القناعة ، ويغمرها الحب ورضا النفس ، وفزنا بتربية علمية طيبة لم تكن قلة الدخل عثرة فى سبيلها .

وبعد ثلاثين عاما قضاها الوالد ـ رحمه الله ـ بعيداً عن وطنه ـ قرر الرجوع إليه ، لقد شغله ـ جدا ـ مستقبل بناته المسلمات إذا بَقين فى قلب أوربا ، واشتد أمَلُهُ فى أن يزوجهن بمصر من مسلمين مصريين . واختار ـ رحمه الله ـ الدكتور محمد البهى زوجاً لى حين تقدم إليه طالباً يدى .

كان والدى معجباً بالدكتور البهى لما كان عليه من علم وأفق رحب ، وكان الدكتور البهى قد أمضى ثمانى سنوات فى « ألمانيا » حصل أثناءها على شهادتى « دكتوراه » : إحداهما فى « الفلسفة الإسلامية » ، والأخرى فى « علم النفس » .

لم تستغرق الخطوبة أكثر من شهرين زُففت ـ بعدهما ـ إلى الدكتور محمد البهى ، كنت فى الثامنة عشرة من عمرى ، وكان زوجى يكبرنى بعشرين عاما .. ولم يشكل هذا الفارق أثراً ما فى نفسى .. كان من يعرف الدكتور لابد أن يعجب به ، وزادنى إعجابا به ما تمتع به من خلق رفيع ، وسلوك راق .

كنت فى البداية أتكلم العربية بصعوبة محشوة بلكنة ، فاشتد إقبالى على دراستها ، وبفضل القراءة المستمرة ، ومع وجودى بين عائلة زوجى ، تحرك لسانى بالعربية ، ثم استرسل فيها .

وبعد عام واحد من زواجنا رزقنا بابنتنا الوحيدة « نادية » التى شاء الله ـ سبحانه ـ ألا ننجب غيرها . ولعل فى ذلك ـ الحكمة بمشيئة الله ـ فقد توفر للبيت الهدوء الذى يعين على البحث والدرس

والتأليف ، والنظام الذى يتمسك به الدكتور دائماً .. وتمثلت مساعدتى له فى توفير هذه الحياة التى يرغبها .

عشنا فى شقة متواضعة بحى العباسية بميدان المستشفى الفرنسى فى ذلك الوقت ، وهو المستشفى الذى يحمل اسم مستشفى الطيران حالياً .

فى هذه الشقة كان يستقبل الدكتور ـ رحمه الله ـ زملاءه وأصدقاءه ومعارفه من مصريين وأجانب يحتفى بهم ، وأقيم لهم المآدب ، دون أن أستعين بطهاة ، حتى حين صار « وزيراً » وكان من قبل أستاذاً بكليتى اللغة العربية وأصول الدين ، ثم أصبح مديراً للبحوث الإسلامية ، وقد صحبته فى أسفاره المختلفة :

سافرنا إلى « كندا » حين شغل منصب أستاذ بـ « جامعة جيل » بدعوة منها ، وفى « كندا » بذلت أقصى ما فى وسعى لمساعدته فى أداء مهمته العلمية فقمت بنسخ كل محاضراته وإعدادها على الآلة الكاتبة .

وبعد زواج ابنتنا ، صحبته فى سفرته إلى « الجزائر » ثم « لبنان » بدعوة من الدولتين ، ثم عدنا إلى القاهرة ، وساهم الدكتور ـ رحمه الله ـ فى إنشاء « جامعة الأزهر » الحديثة ، وكان أول مدير لها ، وبعد فترة الوزارة سافرنا إلى « قطر » و« السودان » و« ماليزيا » .

●●●

كان ـ رحمه الله ـ يستيقظ فى الخامسة صباحاً ، وظلت تلك عادته عند تعيينه وزيراً عام ١٩٦٣ ، فكان يصل إلى الوزارة فى تمام السابعة والنصف . وكنت ـ وقتئذ ـ مسئولة عن ترتيب كل شيء فى البيت وعمله حتى طعام الحراس القائمين على حراسة « الفيلا » التى استأجرناها بمصر الجديدة . وقد شغل زوجى هذا المنصب الوزارى ثمانية عشر شهراً . كان الدكتور ـ أثناءها ـ موضع حفاوة المجتمع من حولنا . تلك الحفاوة التى افتقدناها بتركه للوزارة ، وتلك سنة الحياة . ولعل ذلك كان سبباً فى رفضه منصب سفير مصر بكندا بعد تركه للوزارة ، وفضل على السفارة منصب أستاذ بجامعة القاهرة ، ثم كرس حياته كلها للكتابة والتأليف .

ثم مات ـ رحمه الله ـ مات ـ عالماً ـ من أفضل العلماء .. وأنزه الرجال فى عصرنا ومصرنا .

وهأنذا بعد أربعين عاما من التعاون والمشاركة أذكر ما كان عليه الدكتور ـ رحمه الله ـ من جد وحزم لم يمنعا ما كان يتمتع به من عطف وخير بقدر ما تسمح إمكانياته ، وقد عاش حياة مليئة بالتضحيات .. تضحيات تعرفها المثل العليا والقيم النبيلة ثم الصفوة من تلاميذه الذين ظلوا على وفاء نادر لهذا الرجل العظيم .

توفى ـ رحمه الله ـ بمستشفى « المقاولين العرب » بين يدىّ وابنته ولفيف من المقربين ، منهم تلميذه الفاضل الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار ـ رحمه الله ـ .

أسلم الروح فى ١٩٨٢/٩/٩ ، فكانت حياته سبعة وسبعين عاما وشهرا وستة أيام ، إذ وُلد ـ رحمه الله ـ فى ١٩٠٥/٨/٣ . ونزل مثواه الأخير بمقبرته شرق مدينة نصر بطريق السويس . تغمده الله برحمته .

وكم أود أن يحقق الأزهر الشريف أمنيتى فيتقبل منى مكتبة الدكتور البهى ـ رحمه الله ـ مخصصاً لها مكاناً يحمل اسمه ، ويليق بها وبالدكتور ، وأرجو أن يفسح الأزهر صدره لِشَرْطى هذا ؛ فإن للدكتور الراحل مكانته العلمية ودوره البارز فى جامعة الأزهر الحديثة ، كما كان أستاذاً مبرزاً بها .. ولتبقى ذكراه حية فى أذهان الباحثين رائداً يثرى الحياة العلمية ، ويوجه الثقافة الإسلامية فى مصر وغيرها من أقطار العالم .

« هدى على الغاياتى »

مقدمة الكتاب

يفرض علينا الأجنبى ـ مُنذ الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر ـ : « موضوع التفكير » ، ويجرنا إلى مشاكل ليست من طبيعة بيئتنا ، يدفعنا فى متاهات ننسى فيها ديننا وتاريخنا وكل عوامل مقوماتنا ، أو نتركها عن قصد ، وربما نتركها مُتَحَدِّينَ إياها ، وجاهدين فى حمل الآخرين منا على الترغيب عنها :

فَرَضَ علينا « العلمانية » فى تعليمنا ، وفرضها علينا فى تشريعنا ، وفرضها علينا فى تفكيرنا وسلوكنا ، وفرضها علينا فى سياستنا ، وفرضها علينا فى اقتصادنا ؛ ففصل بين الإسلام وحكم الدولة ، وأبعد الإسلام عن مجالات الحياة العامة ، وتركه داخل المسجد وفى قلوب الناس يمارسونه اعتقاداً ، وقلما ينزلون به إلى التطبيق .

ويحاول منذ الحرب العالمية الثانية أن يفرض علينا علمانية من نوع آخر متطرف : يحاول أن يفرض علينا إلغاء الدين عقيدة ، بعد أن طمست معالمه عملا فى أوضاع المسلمين ؛ **يحاول أن يصل بنا إلى ما يسمى : « الإلحاد العلمى » ، وهو مرحلة من مراحل العلمانية ، كى نصل عن طريقه إلى مجتمع غير طبقى !!**

يفرض علينا العلمانية كحل لمشكلة ازدواج السلطة ، وكحل آلى لتحقيق ما يسمى بالعدالة الاجتماعية .

هل المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام ومبادئه : فى الحكم والسياسة ، وفى نظرته إلى الإنسان ، وفى تحديد منهج السلوك له .. تنشأ له مشكلة تتعين العلمانية حلًا لها ؟ أم أن العلمانية كحل تتطلب أن نستورد من الأجنبى عنا مشكلته أولا ؟ فإن صعب استيرادها فلنتصورها على الأقل ، وتكون العلمانية عندئذ حلا لوهم ، وليست لحقيقة قائمة فعلا ؟!

إن هذا البحث يحاول الإجابة عن هذين السؤالين .

العلمانية والإسلام

في الفكر

العلمانية والإسلام فى الفكر

الإنسان فى ظل مبادىء الإسلام لا يرتفع إلى مستوى الألوهية والقداسة فى التقدير ، كما لا ينزل إلى مستوى الحيوان فى السلوك والمعاملة .. ولا يعصم من الخطأ فى الحكم والرأى والسلوك ، بل كما يصيب يخطىء .. والوظيفة العامة التى يتقلدها الإنسان ـ أيا كانت منزلتها ـ لا تغير من خصائص طبيعته البشرية .. وحكومة الإسلام فى تطبيق مبادئه ليست إلهية ، بل هى بشرية تخضع للنقد ، وتقبل الشورى والمطالبة بها .. ورأى الإنسان أو « اجتهاده » لا يلتزم به إلا الإنسان صاحب الرأى نفسه ، وإمام المسلمين أو رئيس دولتهم هو ـ بحكم نظام الإسلام فى الخلافة ـ من الخيرة بينهم : إيماناً بالله ، ومعرفة بمبادىء الإسلام ، وأكثرهم تجنباً للظلم والاعتداء ، وإحقاقاً للحق ، وإقراراً للعدل .

والعلمانية إذن ، ليس لها مكان فى وجود الإنسان مع الإسلام فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية ، أو توجد العلمانية ولا إسلام .

والعلمانية فى تصوير بعض المسلمين المعاصرين ، وفى محاولتهم التوفيق بينها وبين الإسلام فى مجتمع إسلامى . تعود إلى قصور فى تصور الإسلام ، ثم إلى رغبة فى محاكاة حلول فى تفكير الغرب ؛ لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية ، ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة فى كل جوانبها فى المجتمع الأوروبى .

مفهـوم العلمانيـة :

تنسب العلمانية[1]ـ على غير قياس ـ إلى العـالم ، أو العالميـة Secularism : هى نظام من المبادىء والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة الدينية .

هى اعتقـاد بأن الديـن والشئـون الإكليريكيـة « اللاهوتيـة الكنسية » والرهبنة لا ينبغى أن تدخل فى أعمال الدولة ، وبالأخص فى التعليم العام .

والتحول إلى العلمانية هو التحول من الملكية الدينية إلى الملكية المدنية ، أو من الاستعمال الدينى إلى الاستعمال المدنى .. هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبنى ... هو التحول إلى الانتماء المدنى .

.. والعلمانى Secular ، هو ما يتعلق بالحيـاة الدنيويـة المؤقتـة وليست له قداسة مقابل الشئون الكنسية ، ومنه الموسيقى الدنيوية مقابل الموسيقى الدينية أو الكنسية ، والمدرسة الدنيوية ـ أو المدنية ـ مقابل المدرسة الإكليريكية .

وهنا إذن ، ثنائية فى المجتمع الأوربى : هنا دولة وكنيسة .. هنا مدنى ودينى .. هنا حياة دنيوية غير مقدسة ـ وحياة أخرى كنسية لها قداستها .. هنا دولة لها سلطة ، وتريد أن تتوسع فى سلطتها ، وهناك كنيسة لها سلطة كذلك وتريد أن تحافظ ـ على الأقل ـ على سلطتها فى

(١) الأصل المطبوع : إذ العلمانية تنسب .

مواجهة سلطة الدولة . وهناك حياة مدنية ودنيوية تخضع للتغيير والتطور ، وهنا حياة دينية كنسية فى منأى عن التغيير والتطور .

هذا مشكل لا يبرز إشكاله إلا وقت أن يتخاصم الطرفان ، ويمتنع أى منهما عن أن يخضع للطرف الآخر ، بسبب من الأسباب .

كانت الكنيسة تكاد تكون صاحبة السلطة المسيطرة طوال القرون الوسطى فى أوربا . حتى ابتدأ الإنسان الأوروبى يكشف مجالا آخر يرى فيه استقلاله عن الكنيسة ، وهو مجال البحث الطبيعى . ثم أخذ يشعر بوجود نفسه المستقل يوم أعلن قانون الجاذبية ، وأخذ يعتز بنفسه يوم استخدم قوة البخار فى الصناعة . ثم كلما اكتشف قوة أخرى ، ابتعد عن الكنيسة وسيطرتها ، بل واتهم الكنيسة ونال من دين الكنيسة ، فزادت اتهاماته بعد أن عرف قوة الكهرباء ، وفجر الذرة ، وبحث الفضاء .. وهو إذ يوجه اتهاماته للكنيسة وينال من دينها لم يكن ذلك بناء على أدلة علمية يقينية توجب إبعاد المسيحية ، وإنما ـ فى الأغلب ـ يستهدف من كثرة الاتهام والنيل ؛ المحافظة على حريته فى حركة البحث ، وفى السلوك فى ظل دولة قوية مستقلة عن الكنيسة ، وعن رأى رجال الإكليروس فيها .

والذين كانوا يوجهون الاتهامات إلى الكنيسة ، وينالون من المسيحية فى عصر من العصور بعد القرون الوسطى ـ وبالأخص من القرن السابع عشر ، إلى القرن التاسع عشر ـ لم يسلموا من المعارضة .. والمعارضة العلمية القوية ؛ فالقوانين التى قامت عليها

الماركسية فى القرن التاسع عشر مثلا ـ وكانت نظرتها إلى الكنيسة والدين أشد مراحل العلمانية عنفاً ضد الكنيسة والدين ـ هذه القوانين لم تسلم لها من الوجهة العلمية :

١ـ فنشأة الأنواع وتطورها ـ كما نذكر عند : داروين Darwin (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) وهيكل Haeckel (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) ، بقيت حتى الآن لغزاً ، كما كانت ، ولم تصبح قانوناً علمياً ، كما ادعت الماركسية وأسست عليها تفكيرها .

٢ ـ والأصل الميكانيكى الذاتى ، الذى يؤكد أن الحياة كلها ، من : عقلية ، ونفسية ، وسلوكية صادرة عن «مادة» عضوية فى الإنسان .. هذا الأصل لا يعتبر من الحقائق العلمية فى نظر كثير من الباحثين .

٣ ـ والمادية كمذهب ـ تحت أى عنوان ـ .. انتهى أمرها اليوم ، على الأقل فى ميدان البحث العلمى ، وبالأخص : جعل الاقتصاد أساس الحياة الإنسانية فى جميع اتجاهاتها .. نقضه ماكس فيبر Max Wober (١٨١٤ ـ ١٩٢١) فى كتابه : « البحوث الدينية الاجتماعية » (ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٠) بالدين عند الهنود ، والصينيين ، واليهود .. وبالمجتمع والاقتصاد فى القرون الوسطى وصلته بالتفكير الكنسى .. وبالرأسمالية وتأثرها بتعليم « كالفن » : Galvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) وبالحقائق الرياضية والمنطقية وعدم صلتها بأى أساس مادى .

تصور توزيع الاختصاصات

مشكل تنازع السلطة بين الدولة والكنيسة ، أو بين الدنيوى غير المقدس ، والكنسى المقدس تَصَوَّرَ حَلَّهُ بعضُ المفكرين فى أنه يجب أن يكون ـ الحل النظرى على الأقل ـ فى توزيع السلطة وتقسيمها بين الطرفين ؛ يكون للدولة مجال ، وللكنيسة مجال .. تكون للدولة : الشئون السياسية ، والاقتصادية ، والتعليمية ، والتشريعية بما لا يمس الكنيسة ، وتكون للكنيسة : شئون الأسرة فى مراسيم الزواج ، وطقوس الوفاة ، ونظام الرهبنة والاكليروس .

وهذا التقسيم ، أو الفصل بين السلطتين يأخذ اسم « العلمانية » وقد مر فى التفكير الأوروبى بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة العلمانية المعتدلة ، وهى مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر .

المرحلة الثانية : مرحلة العلمانية المتطرفة ، وهى مرحلة القرن التاسع عشر ، وقد بلغت قمتها فى التطرف فى الفكر المادى التاريخى .

فالمرحلة المعتدلة ، وإن اعتبر فيها الدين أمراً شخصياً لا شأن للدولة فيه ، فإن على الدولة مع ذلك أن تحمى الكنيسة . وبالأخص فى جباية ضرائبها . وإن طالب التفكير العلمانى فى هذه المرحلة بتأكيد الفصل بين الدولة والكنيسة ، فإنه لا يسلب المسيحية كدين من كل قيمة لها ، وإن كان ينكر فيها بعض تعاليمها ، ويطالب بإخضاع تعاليم المسيحية للعقل ، وإلى مبادىء الطبيعة ، وما نشأ عنه ، ذلك المذهب المعروف

باسم : Deism وهو مذهب يعترف بوجود الله كأصل للعالم ، ولكنه ينكر الإعجاز ، والوحى ، وتدخل الله فى العالم . ومن أتباع هذا المذهب :

١ ـ Voltaire فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) فى فرنسا .

٢ ـ Shaftsbury شفتسبرى (١٦٧١ ـ ١٧١٣) فى إنجلترا .

٣ ـ Lessing (١٨٧٢) فى ألمانيا .

ومن فلاسفة هذه المرحلة المعتدلة للعلمانية فى التفكير الأوربى : الفيلسوف الإنجليزى لوك Loke (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) .

فهو يرى : أن الدولة الحديثة التى رفعت شئونها كل وصية للكنيسة .. تنظر إلى كل اعتقاد دينى على أنه رأى شخصى ، وإلى كل رفقة فى الدين على أنها ترابط حر ، يجب أن يتحمل وأن يدافع عنه ، طالما لا يهدد نظام الدولة بالإقلاق أو التخريب .

وقد شارك ليبنيز Leibniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) «لوك» كى يكون الوحى المسيحى مطابقاً للعقل ـ فى وجوب حذف بعض التعاليم المسيحية : كعقيدة التثليث ، وعقيدة الطبيعة الإلهية الإنسانية للمسيح ، على أن يصبح الوحى الإلهى للإنسان عامة هو القوانين ، والمبادىء ، وليس ما وراء الطبيعة ، كما وقع لموسى .

وبالرغم من أن يصبح الدين بعد هذا التحويل فى الوحى موضوعياً ، فإنه يظل أمراً شخصياً ، يلتزم به الشخص وحده ، دون صلة بالدولة .

ومن فلاسفة هذه المرحلة المعتدلة فى العلمانية كذلك : الفيلسوف الإنجليزى الآخر هوبز Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) .

فهو يرى : أن الدولة « عقد » وأن عليها أن تسوق الإنسان بالإكراه إلى الانضمام إلى هذا العقد ، ودفع الإنسان بالإكراه إلى الانضمام إلى عقد الدولة ناشىء عن نظرته إلى الإنسان على أنه : « أنانى » من طبيعته .. على العكس من نظرة روسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) إلى هذه الطبيعة : فطبيعة الإنسان فى نظر روسو .. هى طبيعة خيرة ، وأن الإنسان اجتماعى بإحساسه ، ولذا لا يدفع بل ينتظر منه أن يشارك من نفسه فى الدولة كعقد اجتماعى ، لصالح الكل .

ويتحدث « هوبز » عن « سيادة » الدولة .. فجعل الدولة هى المصدر الوحيد للقانون ، والأخلاق ، وكذلك الدين ، ويقول فى شأن ذلك : « لهذا أعلن أن سلطة الدولة العليا لها الحق فى أن تفصل هى فى بعض التعاليم : هل هذه التعاليم تحتمل بالنسبة لطاعة المدنيين للدولة أم لا ؟ .. فإذا كانت لا تحتمل فيجب تحريم انتشارها » .

وفى نظره : ممارسة الدولة لسياستها هو لعب بقوة الأنانية المتجمعة : فالأفراد أنانيون بطبائعهم ، ومن مجموع أنانيتهم تتكون قوة الدولة . والدول فى علاقات بعضها مع بعض يسود فيها وضع الطبيعة المسمى الآن بالسيادة ، ومن أجل سيادات الدول فى نظر « هوبز » .. يستمر الحرب . والقوة والمنفعة كلتاهما تحددان ـ وحدهما ـ طبيعة الجماعة .. ولتوضيح العلاقات بين الدول ، وأنها علاقات قائمة على

استخلاص المنفعة ، واستخدام القوة يظهر التمثيل بالحيوانات كشعار للدولة فى فلسفة الفلاسفة :

فعند هوبز : الذئب هو شعار الدولة .

وعند مكيافيلى ، شعارها هو : الأسد والثعلب .

وعند اشپنجلر ، شعارها هو : النسر .

وعند ليسنج ، شعارها هو : القرد الجارح .

ومن أجل حرص « هوبز » على سيادة الدولة : يعارض كل اتجاه يعارضها ، وبالأخص يتجه بمعارضته إلى الكنيسة . والأمر عنده فى مخاصمة الكنيسة ليس هو أمر التفتيش عن الحقيقة ، أو القانون ، أو الدين .. بقدر ما هو محافظة على قوة الدولة وسيادتها . وللدولة ـ أو للأكثرية ـ أن تفعل فى نظره ما تهوى وما تريد . والإنسان فى تمثيله للجماعة له أن يستحسن ، أو يستقبح ما يشاء ، وبذلك يعود الإنسان من جديد مرة أخرى ـ بعد السوفسطائية فى الفكر الإغريقى القديم ـ إلى أنه هو مقياس الأشياء ومعيار القيم ، وعلى هذا النحو تنظر الشيوعية إلى الفرد : فهى ترى مغزى وجوده فى وجود الإنسان العام : فى وجود الوحدة الجماهيرية » . فى وجود « الدولة » .. فى وجود « الحزب » ، وعن هذه النظرة تصل الشيوعية إلى : (الدولة المطلقة) ، ونظام الدولة المطلقة يجعل الدولة : المبدأ ، والمصدر الأخير لكل جانب من جوانب الحياة .

واندفاع « هوبز » إلى التقدير الأعمى للإنسان العام يعود إلى خضوعه إلى اتجاه المادية ، ورؤيته الحقيقة كلها ـ وليس بعضها

فحسب ـ فى الماديات . ثم يعود أيضا إلى إيمانه بقانون الحركة الطبيعية بين الضغط والدفع ، والسبب والمسبب .. تلك الحركة التى تنشأ عن أسباب طبيعية خالصة فى تعليل الأحداث . إذ عن طريق تأثر هوبز بالأمرين معاً .. لم ير إلا السيادة المطلقة للدولة فى تجميع الأفراد الأنانيين بطبيعتهم ، على العقد . وكذلك يصدر رأيه عن هذا التأثر بوجوب معارضة الدولة للكنيسة فى سبيل احتفاظها بالقوة المطلقة ، وأيضاً باستخدام الحرب مع دولة أخرى .

ولم يسلم « هوبز » من المعارضة القوية لرأيه فى الدولة ، وفى معارضة سلطة الكنيسة : فقد قام فى وجهه فى إنجلترا ما يسمى : بمدرسة كمبردج . ومن أقوى المعارضين له فى هذه المدرسة رالف كدورث : Ralf Cudworth (١٦١٧ ـ ١٦٨٨) : فقد عارض مذهبه الإلحادى ، ورفض : أن تكون الأخلاقيات يمكن أن تنشأ عن الفهم الطبيعى كما يدعى هوبز . وأكد أن هذه الأخلاقيات تتصل فى المثل العليا فى العقل الإلهى . والعقل الإنسانى يسهم فيها عن طريق : أنه مخلوق لله .

ومن أنصار هذه المدرسة :

١ ـ Samuel Parker صمويل باركر .

٢ ـ Henri More هنرى مور .

٣ ـ John Smith جون سميث .

وأما الفيلسوف الإنجليزى الآخر : هيوم Hume (١٧١١ ـ ١٧٧٦) : فهو مع كونه ملحداً ينكر الله ، كما ينكر خلود الروح ..

إلا أنه كرجل من رجال التقاليد فى إنجلترا .. يبقى على اعتبار الدين ، كإيمان فقط . فالدين فى نظره ليس علماً . وإنما هو إحساس فقط .. إحساس بالإيمان بموجود قوى فوق الإنسان . هو إحساس ناشىء عن تغير موجات الحياة ، وظلام القدر ، والترقب المخيف ، والقلق من المستقبل ، وبالأخص بعد الموت ، والوثنية هى الصورة الأولى لهذا الإيمان .

وفى فرنسا ظهـــر الفيـــلسوف روسو Jean Jacques Rousseau : (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) : وهو يتفق مع هوبز فى إبعاد الدين عن الدولة ، وعن التربية على وجه أخص ، ولكنه يختلف معه فى سبب المطالبة بإبعاده . فهو ـ فى فلسفته ـ على الضد من فلسفة هوبز .. إنسانى وليس بمادى . ويستهدف فى فلسفته تقدم الإنسانية وحريتها وسعادتها ، ولكن بوسائل أخرى غير تلك التى نادى بها فولتير . فروسو كان من أصحاب القلب والإحساس ، بينما فولتير كان من أصحاب العقل والتفكير .

روسو يرى : إن الإنسانية يجب أن تعود إلى الطبيعة الأولية .. إلى فضيلة المواطن .. إلى سيادة الأسرة والمنزل ، ولكن يقف فى طريق سعادة الإنسانية ـ فى نظره ـ التناقض بين الطبقات والطبقة الحاكمة ، وكل المنظمات التى تحتفظ بالقوة المسيطرة وتسعى إلى الاحتفاظ بها من : مدنية ، وكنسية .

وبالرجوع إلى الطبيعة الأولى وحدها ـ فى نظره ـ توجد بين الناس : المساواة ، والحرية . وبذلك فالناس إخوة .. وليس بالرجوع

إلى الثقافة والمدنية ، ولا إلى المجتمع الذى يحمل ذلك ، وبسبب الحرية والمساواة .. يعطى « روسو » الكلمة إلى الديموقراطية الراديكالية وسيادة الشعب ، بدلًا من تعاليم : الدولة المطلقة عند « هوبز » ، وبدلًا من الملكية الدستورية للنموذج البريطانى عند « مونتسكيو » Montesquieu (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) . وفى نظره ليست هناك حاجة إلى نيابة برلمانية ، طالما تكون القوة الحقيقية للشعب ، ويكفى من وقت لآخر : أن يقترع الشعب على بيان يعلن عليه .. وإلا لا تكون القوة فى الواقع لهؤلاء الناس الطيبين ، ولا للشخصيات الحية فى أصلها التى تصنع الدولة ، وإنما تكون القوة عندئذ لتلك المؤسسات الثقافية الجامدة ، ولتلك الأحزاب ، والطبقات ، والمنظمات التى تنمو وتتعاظم فوق رءوس الشعب وتسلبه حريته ، معتمدة على تجاربها .

فالدولة هى الشعب نفسه ، ولا ينبغى أن ينظر إلى الشعب إلا على أنه اتحاد اجتماعى حر (عقد اجتماعى) صادر عن إرادة المواطنين ، الذين هم كذلك ليسوا شيئاً آخر سوى : أنهم مواطنون ، متساوون ، أحرار طيبون .

وفى التربية ـ للمحافظة على الوضع الطبيعى الأصيل للإنسان ـ يجب أن يترك التلميذ حراً ، بدون إكراه له من الخارج .. يجب أن يتبع ما له من استعدادات وطاقات ذاتية : بحيث ينشأ صادقاً فى حسه ، وطبيعياً مع خصائصه ، وللمحافظة على أن يكون طبيعياً فى نموه يجب

إبعاد غير الطبيعى من القوى الثقافية ، والعادة ، والقانون ، وكذلك تعليم المسيحية الخاص « بالخطيئة الموروثة » « فكل شىء من صنع الخالق عندما يخرج .. هو حسن ، وكل شىء يقع تحت أيدى الإنسان .. ينحط ويتغير » ، هذه هى الجملة الأولى فى كتابه التربوى « اميل » . وفى هذا الكتاب يركز روسو على الطبيعة ، ويجعلها – وحدها – هى العامل الفاصل ، كما يجعل الدين فى التربية أمراً ضد الطبيعة . فالإيمان فى أكثر الناس أمر جغرافى ، ويتعلق بالإنسان وحده : هل ولد فى مكة ، أو فى روما .

وروسو على وجه التأكيد ضد تلقين الأطفال الحقائق الميتافيزيقية ، التى لا يمكن أن تدرك بالحس ، ولذا – من وجهة نظره – ينبغى أن لا يتبع الطفل حزباً دينياً . ولكن يمكن من الاختيار بنفسه ، على أساس من عقله الخالص .

وفى الوقت الذى يتجه روسو فيه ضد الإلحاد يتجه أيضاً ضد الأدلة الميتافيزيقية على وجود الله ، التى يحتضنها علم اللاهوت الكنسى . فالله – فى نظره – ليس موضوعاً للعلم ولا للعقل ، بل هو موضوع للإحساس والقلب . والإيمان بالفضيلة والخلود هما : الدين الصادق .

ليسنج Lessing (١٧٢٩ – ١٧٨١) والدين :

والدين فى نظر ليسنج ليس شيئاً نهائياً ، ولكنه مرحلة يقوم عليها طريق الحياة للإنسانية . والأديان كلها تقع فى مجال التطور – ويجب أن نخطو إلى ما هو أفضل وأحسن . وفى الأديان الكبيرة يستهدف الله

توجيه الإنسانية إلى ما هو حق وصحّ ، وليست هناك حقيقة أبدية لا تنقض ، وإنما هناك سعى نحو الحقيقة .

وفى هذه المرحلة الأولى للعلمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ـ هذه المرحلة التى تعتبر معتدلة نوعاً ما عن المرحلة التالية ـ تكمن دوافع الفصل بين الدولة والكنيسة ، أو بين الدين والدولة فى الأسباب الآتية :

أولًا : الحرص على سيادة الدولة سيادة مطلقة ، فى مواجهة سلطة الكنيسة ، ووصايتها السابقة فى القرون الوسطى على الإنسان ، كما هو واضح عند (هوبز) .

وثانياً : اتهام المسيحية ببعد بعض تعاليمها عن العقل ـ كعقيدة التثليث ، وعقيدة الطبيعة الإلهية الإنسانية للمسيح ـ كما يرى فى فلسفة (لوك ، وليبنز) وفى محاولتهما ـ مع آخرين ـ لتصفية المسيحية على أساس من منطق العقل ، ـ كما يدعى ـ وتسمية ما يخضع للعقل باسم : دين العقل .

وثالثاً : النظر إلى الدين فى التربية على أنه ضد « الطبيعة » كما فى نظرة (روسو) إليه ، بناء على تعاليم المسيحية : « بالخطيئة الموروثة » .

ورابعاً : اعتبار الدين أمراً متطوراً ، وليس بنهائى ، كما يراه (ليسنج) وبالتالى حقائقه حقائق متغيرة وقابلة للنقض .

وإذا كان هوبز قد كشف واضحاً فى فلسفته عن عامل الفصل بين الدولة والدين ، وهو عامل الحرص على سيادة الدولة .. وهو عامل

يتصل بالتنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة ، أكثر منه عاملًا يبرز عزل المسيحية عن الحياة الإنسانية العامة ، فإن العوامل الثلاثة الأخرى تتجه إلى نقد الدين . وهى وإن اتجهت إلى نقد الدين والنيل من تعاليمه ، لكنها تتجه فى واقع الأمر إلى تفسيرات فى المسيحية أصبحت تقليداً وعقيدة لبعض كنائسها . ولكن جوهر المسيحية لايخرج عن كونه دعوة للروحية الإنسانية فى مواجهة المادية التى طغت فى آخر عهود الموسوية .

المرحلة الثانية للعلمانية فى القرن التاسع عشر

وهى مرحلة العهد المادى ، أو ما يسمى « بالثورة العلمانية » مرحلة الجناح اليسارى من مدرسة هيجل فى القرن التاسع عشر .

وقد قيم مؤرخ الفلسفة : K'lowlth فى كتابه : Vo Hegelbls Nietzsche ـ « من هيجل إلى نيتشه » سنة ١٩٥٠ ـ أصحاب العهد المادى والثورة العلمانية : بأنهم قد انحرفوا فى التوجيه ، ونقلوا معارفهم الأكاديمية إلى المعارف الصحفية ، تحت ضغط الظروف الاجتماعية ، وأصبحت وظيفتهم هى وظيفة الكاتب : يقع تحت التبعية المستمرة للناشرين ، ومن يعطون المال ، والجمهور ، والرقابة ، وكتابتهم هى : بيانات ، وندوات ، وبرامج ، وادعاءات ، ومظهرهم العلمى أصبح تبليغاً حماسياً للناس ، كما أصبحت لهجتهم تنطوى على الإثارة ، ولكن كتابتهم لا تترك إلا ذوقاً قليل الطعم ؛ لأنهم يدّعون ادعاءات عريضة لا حدود لها ، مع فقر وسائلهم ، والعالم بعد سنة ١٨٣٠ أصبح قبيحاً وفاسداً ، ولو قيس العقل الجديد فى عهد الثورة العلمانية بمقياس تاريخ العقل عند هيجل .. لعد نمطاً من تحويل الفكر .. إلى همجية وبربرية ؛ إذ أصبح مضمونه الآن : عجرفة .. وميولا فاسدة .

فيرباخ Feuerbach (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) :

ويعتبر من أهم المؤسسين لفكر الثورة العلمانية فى القرن التاسع

عشر : إذ يمكن للإنسان عنده ، أن يدرس مرحلة الانتقال من دين أرضى طبيعى صاف بعيد عن السماء .. إلى المادية المتطرفة . فقد بدا واضحاً : أنه يشلح الإله المسيحى من تاجه ، ويطيح بالثنائية بين الدين الغيبى والعالم المشاهد ، وكذلك بين الكنيسة والدولة .

وذلك فى رسالته التى كتبها عن هيجل .

وفى نقده لفلسفة هيجل فى سنة ١٨٣٩ : تحدث عن عدم الجدوى من فكرة « المطلق » (وهى الله) وذكر أن المطلق عند هيجل ليس إلا العقل المفارق للاهوت : ذلك أن العقل يشبه فى فلسفة (هيجل) : الخيال الطائف .

وفى رسالته « لإصلاح الفلسفة ، والمبادىء الأساسية لفلسفة المستقبل » . سار قدماً فى الطريق نحو الإيمان بالمحسوس وحده ، وبالمادية الهوجاء ، وبالأخص فيما كتبه فى هذه الرسالة تحت عنوان « طبيعة المسيحية » سنة ١٨٤١ .

والمذهب المثالى عند هيجل ـ فى نظر فيرباخ ـ ليس إلا غطاء للاهوت « ومن لا يتنازل عن فلسفة هيجل ، لا يتنازل عن اللاهوت » . فرأى هيجل ـ فى نظر فيرباخ ـ بأن الواقع والطبيعى نشأ عن « الفكرة » هو التعبير العقلى فى تعاليم اللاهوت ؛ بأن الطبيعة نشأت عن الله ـ ويقول ـ متحدياً ذلك ـ : إن الدين اللانهائى ، وكذلك الفلسفة ، ليس فى الواقع إلا تحديداً حسياً نهائياً ، ولكن فيما وراء الضوء ، فبداية الفلسفة لا يمكن أن تكون الله ، أو الوجود بدون موجود ، ولكن بدايتها فقط : النهائى ، والمحدد والواقع ، ويجب أن

تكون **المادية** ، أو مذهب الحس فى **موضع الدين الغيبى** (**أى الموحى به من عند الله**) وفيما وراء الطبيعة ، والواقعى ، والحقيقى ليس الله ، ولا الوجود ، ولا المفهوم والمعنى ، ولكن **الموجود : هو المُحَسّ** .

والإنسان هو الموجود الإلهى ، وليس الله . والدين الجديد هو : السياسة بالطبع ، وليس : المسيحية . والسياسة يجب أن تكون ديناً ، ولكن لا يتحقق ذلك إلا إذا كان هناك شيء أعلى فى نظرنا يحول السياسة إلى دين ، وهذا الشيء الأعلى هو : الإنسان ، ولكن ليس الإنسان الفرد ؛ لأن الإنسان الفرد يظل دائماً إنساناً أرضياً مفتقراً ، ولذا يجب أن تكون « جماعة العمل » هى المعبود ، وفى مكان القيادة .

والله والدين ، ليس أى منهما أساس الدولة ، وإنما أساسها الإنسان وحاجته . ليس الإيمان بالله ولكن الشك فى الله يجب أن يكون العامل فى قيام الدولة . والإيمان الذى يجب أن يتوفر هو : إيمان الناس بذواتهم أنفسهم وببعضهم بعضا ، لأنه إذا بقى الله هو : السيد ، والرب .. فإن الإنسان سيظل واثقاً به ، بدلا من أن يثق بالناس ، والباقى لنا هو الإنسان وحده .

ولهذا ، فالدولة هى مضمون الواقع كله ؛ هى الطبيعة العامة أو الإنسانية هى الحامية والواقعية للإنسان . وبهذا تصبح الدولة مناقضة للدين ، « وأن الإلحاد العملى هو الرباط بين الدولة » .

والناس يلقون بأنفسهم على السياسة فى الوقت الحاضر ـ هكذا

يذكر فيرباخ ـ لأنهم يعرفون أن المسيحية كدين تشل فاعلية الإنسان السياسية . وتسمى هذه النظرة ـ من جانب أتباع فيرباخ ـ التى تنقل الإنسان إلى مكان الله فى العبادة ، وتقام الدولة عليها ، وتصنع التاريخ . تُسَمَّى : بالمذهب الإنسانى الإلحادى .

Marx ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) :

و « فيرباخ » يعتبر معبد الطريق التى سلكها كارل ماركس مع زميله إنجلز ، نحو تأسيس ما يسمى بالمادية التاريخية الاستنتاجية Dialekisch وتعود تلامذة ماركس بأن يلقبوه : « بأبى الاشتراكية العلمية » . وماركس تأثر أولًا بفلسفة هيجل ، ثم عن طريق تأثره « بفيرباخ » تحول إلى اليسار المتطرف لفلسفة هيجل . وقد درس الاشتراكية أيضا فى فرنسا وتعرف هناك على « إنجلز » . وعن طريقه ذهب إلى إنجلترا ، ودرس المشاكل الاقتصادية ، كما تأثر بالأوضاع الاجتماعية السيئة التى كانت للطبقة العاملة هناك ، وفى سنة ١٨٤٨ وضع « البيان » الشيوعى فى مدينة بروكسل ، بالاشتراك مع « إنجلز » .

وتآليفه : العائلة المقدسة ، والإيديولوجية الألمانية . وشقاء الفلسفة . ورأس المال . وقد نعت ماركس نفسه : بأنه تلميذ لهيجل عكس عليه وضع فلسفته : فهيجل نظر إلى العالم من « أعلى » ؛ لأن « الفكرة » عنده هى مبدأ العالم ، « وما عداها تابع فى الظهور لها ، أو لما يسمى : بالمفهوم ، أو بالعقل العام . والطبيعة المادية هى عنده

صفحة أخرى « للفكرة » وحدها . بينما يرى ماركس : أن الحقيقة المادية وحدها هى بداية العالم ، وهى كذلك الواقع الصافى الجازم ، وماعدا الحقيقة المادية مما له طبيعة « الفكرة » كالعادة ، والخلقية ، والقانون ، والدين ، والثقافة .. هو تابع فى الظهور الإضافى لتلك الحقيقة (المادة) .

و « المادية » عند ماركس تختلف عن « المادية » عند الآخرين من أصحاب اليسار من تلامذة هيجل .. حتى عن « المادية » عند فيرباخ أستاذه ومعبد الطريق له ، فالمادية عند ماركس هى المادية العملية ، التاريخية ، الإلحادية .

وفى نقد ماركس للمادية عند فيرباخ يرى : أن المادية التى قام بها فيرباخ هى عوض عن المذهب الحسى ، الذى ينظر إلى العالم الطبيعى على أنه مجعول يقبل قبولا سلبياً ، وليس على أنه إنتاج للعمل الإنسانى المحسوس (الاقتصاد) ، أو على أنه يدرك على أنه عمل .

والنظرة المادية لماركس هى نظرة راديكالية (متطرفة) استخدم فى شرحها عدة مبادىء من فلسفة هيجل .. استخدم فيها :

أولًا : مبدأ الباعث على التطور الدائم .

وثانياً : مبدأ رفع المتناقضات .

وثالثاً : مبدأ التقدم نحو جديد ، وإن لم يكن أحسن .

كما اختار للتطبيق « الثلاثى » فى فلسفة هيجل (وهو الدعوى ، ومقابل الدعوى ، والجامع بينهما) مجال النظام الرأسمالى كدعوى ،

والطبقة العاملة كمقابل للدعوى ، والمجتمع الشيوعى اللاطبقى كجامع بين الدعوى ومقابل الدعوى .

وبسبب هذا الاختيار يعتبر كارل ماركس « ثورياً » وليس فيلسوفاً ؛ إذ الفلسفة فى نظره : وسيلة مختارة لاتجاهاته السياسية .

والمادة التى تقصدها المادية الماركسية ليست مادة بعيدة عن النشاط الإنسانى ؛ فالمادة التى تحدد ـ فى رأيه ـ النظرة إلى العالم ، أو إلى التاريخ ، وكذلك مايحدد ـ على العموم ـ التفكير ، والعمل ، والسلوك للإنسان .. هى مادة متصلة بنشاط الإنسان ، أو هى إنسان فى صلته بالمادة : (هى الاقتصاد) .

ماركس والمسيحية

ويرى ماركس : أن هدم المسيحية مقدمة ضرورية لبناء عالم يكون الإنسان فيه سيد نفسه ، ولكن لا ترفض المسيحية وحدها ، بل معها يرفض كل دين كذلك ؛ إذ الدين يسلب الإنسان وعيه بمأساته وشقائه فى الوقت الذى يمنيه فيه بعالم أفضل : « **إن الدين هو أفيون الشعب** » . ولذا – فى نظر ماركس – يجب أن يذكر الشعب دائماً ، بأن الدين ليس إنتاجاً للإنسان ؛ إنه تفكير الإنسان وإحساسه ، ذلك الإنسان الذى لم يتكسب بعد ، أو الذى أصبح بالفعل ضائعاً .

وفى نظر ماركس : الطبقة التى تملك ، والأخرى التى تعمل كلتاهما تمثلان وضعاً شاذاً فى الإنسانية ، ولكن الرأسمالية – كما يرى – تحس نفسها بخير فى عدم إنسانيتها . وهنا تنشأ مهمة الطبقة العاملة ، وهى : أن لا تُخدع بالدين ، وأن لا تتراخى فى الصراع ضد الرأسمالية بسببه . فهذه الطبقة العاملة يجب أن تكون على ذكر دائم بمأساتها ، كى تزيل وضعها الشاذ فى الإنسانية ، كما تزيل ذلك الوضع الشاذ الآخر للرأسمالية فى الإنسانية .

وإيمان كارل ماركس بفكرة التقدم (التقدمية) – كما كان الحال فى القرن التاسع عشر – يرجع إلى عاملين :

العامل الأول : ما توحى به فلسفة هيجل بأن كل تطور هو تقدم ، أى هو خطوة إلى الأمام ، وإن كان ليس بلازم أن يكون أحسن .

العامل الثانى : أن مدح التقدم والتبشير به يعتبر من عدة « الثائر » وماركس كان ثائراً أكثر منه فيلسوفاً .

وتتلخص الماركسية ــ وهى العناية بفلسفة ماركس ، وإنجلز ــ فى عدة مبادىء .

المبدأ الأول : المادية التاريخية الاستنتاجية .. من الوجهة الفكرية والنظرية .

المبدأ الثانى : الإلحاد ، واستخدام المنهج العلمى فى تحقيقه .

المبدأ الثالث : صراع الطبقات ، للوصول إلى مجتمع لاطبقى .

وتتبع هذه المبادىء عدة موضوعات أخرى فى الاقتصاد ــ على نحو ماذُكر فى كتاب « رأس المال » ــ وأهمها مايخص فائض القيمة ، الذى هو الفرق بين مايدفع للعامل من رجل الصناعة ، وماتباع به السلعة المصنعة فى السوق الحرة ، ويرى ماركس فى فائض القيمة ؛ أن الرأسماليين يدفعون للعامل أجراً ، على نحو يحفظ له قدرته على العمل فقط ــ ويسميها ماركس بـ « القيمة الخادعة » ــ بينما قيمة الربح فى إنتاج العامل فى السوق الحرة أكثر من ذلك ، وفائض القيمة يخفيه الرأسمالى ، وهنا يكون معنى الرأسمالية مساوياً لمعنى الاستغلال للعامل ، والرأسمالى يرغب فى ذلك ؛ لأنه يملك وسيلة الإنتاج ، والرأسمالى ــ من غير أن يجهد نفسه فى عمل ــ يصل عن طريق استغلال الشعب العامل إلى تكديس الثروة باستمرار . ولكن هذا التكديس نفسه ــ كما يتنبأ ماركس ــ سيؤدى إلى الإكراه على نزع الملكية الخاصة من المكدسين ؛ لأن هؤلاء المكدسين هم الذين أوجدوا الطبقة

العاملة ، ثم عن طريق هذا التكديس عكسوا الآية ؛ فأساءوا إلى العمل .

وإذا صارت الطبقة العاملة على وعى بوضعها اللاإنسانى فإنها ستتقدم إلى الكفاح ؛ فتمسك بسيطرة القوة ، وتنزع الملكية الخاصة ، وتبعد التناقض القديم بين الرأسمالية والطبقة العاملة ، وتذيب هذا التناقض فيما يجمع الطرفين ، وهو المجتمع اللاطبقى .

وهذا هو اتجاه الماركسية الأرثوذكية التى تعرف بـ « الفلشفية » فى الوقت الحاضر .. هى المفهوم الذى أعطاه لينين .. وستالين من بعده ــ للماركسية .

ولكن هناك جناح آخر للماركسيين فى غرب أوربا ، وهو الجناح المعتدل أو المتئد ، هو جناح غير المقلدين من الذين يستخدمون الاختبار والامتحان فى قبول النظريات أو فى رفضها .. هم من يعرفون بجناح الـ : Revisonistes وقد يوصفون بالمرتدين تنديداً بهم ، من أمثال : E.Bernstein K'kautzky,K vorlander

وهذا الجناح ترك فلسفة ماركس فى التطبيق ؛ لأنها فى نظره تقوم على ادعاءات لا دليل عليها ، ثم يعنى بتحسين الوضع الاجتماعى للعمال ، كعمال :

فالحزب الاشتراكي الديمقراطى فى ألمانيا تنازل بصراحة عن المادية التاريخية .

والمنظمات العمالية الاشتراكية فى فرنسا ، وبلجيكا ،

وإيطاليا ، وإنجلترا ، واسكندنافيا .. يصدرون الآن فى نظرتهم إلى تحسين الوضع العمالى عن مبادىء فلسفية واقتصادية أخرى .

وأسس التفكير الفلسفى الماركسى تمثل فى واقع الأمر نظرة القرنين : السابع عشر ، والثامن عشر .. إلى العالم ، وهى النظرة الميكانيكية ذات الصلة بعصر التنوير فى فرنسا ، وبالمذهب الوضعى ، وبالمادية فى البحث الطبيعى فى القرن التاسع عشر .

وقد قذف الماركسيون بأنفسهم إلى .. « مادية البحث الطبيعى » فى القرن التاسع عشر ، كما تقذف صبية الفلاحين إلى مصنع فى مدينة كبيرة وهنا يفهم . أنه هنا كانت كذلك « ثورة » ؛ فقد اعتاد الإنسان الماركسى أن :

(أ) يرجع العقل .. إلى العاطفة .

(ب) والأخلاق .. إلى المنفعة .

واعتاد أن ينظر :

(أ) إلى الإنسان ، على أنه حيوان فى مستوى أعلى .

(ب) وإلى الشعب ، على أنه كومة من الخلايا ـ أو الذرات الإنسانية ـ بحيث لا يحكمها هنا إلا ذلك القانون الطبيعى ، وهو قانون « الضغط والدفع » ، أو « السبب والمسبب » . ولكن النظرة التى قامت عليها مادية البحث الطبيعى ، وهى النظرة الميكانيكية . أصبحت الآن خارجة عن دائرة الاعتبار ؛ لأن هذه النظرة ترى : أن الوجود ذو جانب واحد ، بينما هو متعدد الجوانب ، فالإنسان يبدو فى

طبقات الحياة النباتيـة والحيوانيـة ــ دون ما عداه فيها ــ صاحب إمكانيات عديدة ولذا فله من طبيعته : الحرية والمشيئة والاختبار[1] . ومن أجل ذلك يمكن أن يقال : إن حتمية السببية ــ والمسببية هى أصل النظرة الميكانيكية ــ للطبقة العضوية هى ظاهرة إحصائية فقط ، أى ليست ظاهرة صحيحة بالنسبة لطبيعة الإنسان .

كما نقدت هذه النظرة الميكانيكية للبحث الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، والتى تأثر بها ماركس فى مذهبه المادى التاريخى . نقد أيضاً أساس ما تميزت به « ماديته » وهى المادية العملية .. نقد ذلك الادعاء الذى يرى أن الاقتصاد هو أصل الوجود الفكرى ، والنفسى ، والاجتماعى ، والمادى .

فقد وضح Max Weber ماكس فيبر (١٨٦٤ ــ ١٩٢١) ــ فيما سبق أن أشرنا ــ فى كتابه : « البحوث الدينية الاجتماعية » (فى ثلاثة أجزاء ١٩٢٠) :

(أ) أن الدين عند الهنود ، والصينيين ، واليهود ، لم يقم على أساس اقتصادى ، كما يحاول ماركس أن يشرح كل شىء فى الوجود ــ حتى الدين والأخلاق ، والفكر ــ من الاقتصاد ، ولكن الفكرة الدينية وحدها فى هذه الأديان الثلاثة هى التى حددت البناء الاجتماعى لشعوب هذه الأديان .

---

(١) كذا الأصل المطبوع ويبدو أنها « الاختيار » .

(ب) وأن التفكير الكنسى كان له تأثير على المجتمع الاقتصادى فى القرون الوسطى .

(جـ) وأن الرأسمالية المعاصرة قامت على « الأيديولوجية » الخاصة Calvln كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) وتحت تأثير أصحاب « النزعة الخاصة » فى المسيحية من « البروتستنت » ، فى إنجلترا منذ القرن السادس عشر Puritaners وليست الرأسمالية هى التى خلقت هذه الأيديولوجية .

ويستمر « ماكس فيبر » فى نقده لفكرة نشأة الوجود عن الاقتصاد فى ماركسية كارل ماركس فيتساءل :

(أ) هل يمكن أن تكون الحقائق الرياضية ، والمنطقية تابعة لأسس مادية ؟

(ب) أليست هذه الحقائق هى هى ، فى كل وقت ، وفى كل الظروف ؟

لينين فى تطبيق الماركسية (١٨٧٠ - ١٩٢٤) :

إن ماركس كان ذا صلة بالثوار الروس منذ وقت سابق ، وفلسفته منذ سنة ١٨٧٠ ، كانت تناقش وتدرس فى روسيا ، والمؤسس فى الواقع للماركسية الروسية هو Plechanow (١٨٥٦ - ١٩١٨) عندما كان مهاجراً بجنيف . ففى سنة ١٨٨٠ ، أسس أول مجموعة ماركسية فيها ، تسمى نفسها : « رابطة تحرير العمل » وتبع تأسيس هذه المجموعة قيام مجموعات أخرى على غرارها فى روسيا ، وانضم

بعضها إلى بعض تحت شعار : « اتحاد الكفاح من أجل تحرير الطبقة العاملة » .

وفى سنة ١٨٩٨ عقد أول مؤتمر للماركسيين فى مدينة Minsk ، وعقد المؤتمر الثانى فى بروكسل ، ولندن سنة ١٩٠٣ .

ولينين هو الذى حول الماركسية إلى عقيدة للحزب ، وأصبحت الماركسية تسمى بالبلشفية فى عالم السياسة ، بينما تسمى بالمادية الاستنتاجية فى عالم الفلسفة ، والبلشفية إذن هى « الدين الجديد » بديلا عن المسيحية .

وفى نظر لينين يجب أن تخدم الفلسفة « الواقع » ـ عنده ـ هو « الحزب » ، وفى مقال له تحت عنوان : « الاشتراكية والدين » كتب : « إن الدين هو أفيون الشعب ، وإن الدين نوع ردىء من خمرة العقل التى تحجب ذاكرة الأرقاء لرأس المال عن أن يعوا وجه إنسانيتهم ، ومطالبهم فى وجود إنسانى ، على منتصف طريق الإنسانية » .

ومع هذا : فالرقيق الذى يكون على وعى برقه ، ويقوم للكفاح من أجل تحرير نفسه .. يكون قد وصل إلى منتصف الطريق نحو الخلاص والتحرر النهائى ، والعامل الحديث الذى يكون على وعى بطبقيته ، والذى تخرج فى المصنع الكبير وعلى بصيرة بطريق حياة المدنية .. يبعد عن نفسه بكل احتقار : الامتيازات الدينية ، تاركاً للسماء .. أصحاب الدرجات العالية من القساوسة ، ومن المدنيين الصالحين ، من أجل استخلاص حياة أفضل على الأرض هنا .

وإذ يوافق لينين على أنه يجب أن يكون الدين أمراً شخصياً ـ كما هو معتاد أن يقال فى دائرة الماركسيين ـ فإنه يوافق فقط بالنسبة للدولة ووضعها . **أما الحزب فيجب أن يمارس أعضاؤه الإلحاد** ، إذ الحزب عدو لدود للهرمية . أما الدولة فيجب أن تكون محايدة ، على معنى : أنها لا تهتم بالدين ، وأن لا ترتبط به ، وأن يكون عديم المغزى لديها بالنسبة للمواطن فلا تسأله عن مذهبه الدينى ، وحياد الدولة بالنسبة للدين هو انفصال كامل بين الكنيسة والدولة .

* * *

وفى مرحلة العلمانية المتطرفة : أو ما يسمى بمرحلة « اليسار المتطرف » فى مدرسة هيجل ، نرى :

أولًا : أن « علمانية » فيرباخ ـ وهى التى تتمثل فى مذهبه الإنسانى الإلحادى ، هى : إلغاء الدين .. أى دين ، وليست فصلا بينه وبين الدولة بمفهوم العلمانية فى مرحلتها الأولى ، وإحلال « الإنسان العام » (جماعة العمل) فى العبادة محل الله .

وثانياً : أن علمانية ماركس ـ وهى التى تتمثل فى المادية ، التاريخية ، الإلحادية ـ هى : هدم الدين كمقدمة ضرورية لقيام عالم يكون فيه الإنسان سيد نفسه ، وتنتهى سيادة الإنسان إلى سيادة المجتمع والدولة ، ووضعهما بالنسبة للأفراد هو وضع المعبود الخالق من الأفراد المخلوقين .

وثالثاً : إن علمانية لينين ينتهى أمرها إلى إلغاء المسيحية كدين ووضع « البلشفية » ـ وهى الماركسية اللينينية ـ كدين جديد ، بدلا منها ، وهذا الدين الجديد يجب أن يكون فى خدمة « الواقع » الذى هو « الحزب » . والحزب يأخذ الآن فى هذا الدين الجديد مكان « العبادة » عوضاً عن الله فى المسيحية ، ومكان القداسة عوضاً عن الكنيسة .

وهنا نجد ، بعد استعراض مجمل لأهم خصائص الفكر الفلسفى العلمانى فى أوروبا :

أولاً : أن دافع « العلمانية » فى القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، كان هو : التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة ، ولذا كان الفصل بين السلطتين هو الحل الفلسفى ، أو الرسمى لهذا التنازع .

ثانياً : أن الدافع إليها فى القرن التاسع عشر ، أو فيما يسمى : بين اليسار الثورى أو المتطرف فى مدرسة هيجل ، هو الاستئثار بالسلطة . ولذا كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة ، بل كانت إلغاء للثنائية ، بهدم الدين كمقدمة ضرورية للوصول إلى « السلطة المنفردة » التى هى سلطة « جماعة العمل » أو « المجتمع » أو « الدولة » أو « الحزب » ؛ حسب تحديد بعض هؤلاء اليساريين المتطرفين .

ثالثاً : أن البحوث الطبيعية والتقدم العلمى بالتدريج ، منذ نهاية القرون الوسطى ، هى التى جرأت أرباب هذا الفكر العلمانى على

الخروج على وصاية الكنيسة ، وعلى الاستقلال فى النشاط الإنسانى ، وحركة المجتمع عن أى رأى يصدر منها .

رابعاً : أن الفكر الفلسفى العلمانى ــ سواء فى مرحلته الأولى أو الثانية ــ لم يسلم فى أوروبا من مواجهة فكر فلسفى آخر معارض ؛ فقد قامت « مدرسة كمبردچ » بمعارضة هوبز ، أشد المفكرين العلمانيين صلابة ضد الكنيسة فى مرحلة العلمانية الأولى ، كما قام كثير فى المرحلة الثانية منها بمعارضة المادية عند فيرباخ ، والمادية التاريخية عند ماركس ، وبنقض الأسس الفلسفية التى تبناها الاتجاه المادى المعاصر ، سواء : أكانت أسساً تنتهى إلى دائرة البحث الطبيعى أو إلى دائرة الاقتصاد ، وأبرز المعارضين لهذا الاتجاه المادى كتلة المنشقين اليساريين من أتباع : (برنشتين) الذين لقبوا من أعدائهم اليساريين .. بالمرتدين ثم ما قام به فى القرن العشرين من معارضة الفيلسوف الاجتماعى الألمانى : « ماركس فيبر » لأساس الاقتصاد بصفة خاصة . وبلغ من تأثير ما نالته المعارضة من هذا الاتجاه المادى ؛ أن أصبح يوصف فى الفكر الأوروبى نفسه « بالثورية » دون أن يوصف « بالفلسفى » .. الأمر الذى يدل على أنه يعبر عن عاطفة وحماس ، أكثر منه تعبيراً عن فكرة وتأمل .

خامساً : أن الموطن الذى ولد فيه الفكر العلمانى ــ فى مرحلتيه ــ وهو : إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، لم يأخذ بالاتجاه العلمانى فى التطبيق فى الحياة العملية ؛ فالتاج البريطانى لم يزل حامياً للبروتستنت ، وفرنسا لم تزل حامية للكثلكة فى صورة عملية ،

والدولة فى إنجلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا - رغم إعلان أنها دُولْ علمانية - تساعد المدارس الدينية من ضرائبها الخاصة التى تجيبها من المواطنين ، مع علمها باستقلال هذه المدارس فى برامجها التعليمية ، وببعدها عما تجريه الدولة من تفتيش على النفقات التى تنفقها .

والجانب الآخر الذى يتبنى البلشفية كدين وكسياسة ، بدل المسيحية ، فى أوربا الشرقية لم يأخذ منذ الستينات بسياسة « التعايش السلمى فقط » مع الرأسمالية الغربية .. وإنما يأخذ كذلك بسياسة « حسن العلاقات » مع دولة الفاتيكان .

الإسلام وموقفه من العلمانية

أما موقف الإسلام فهو ضد العلمانية بأى من المفهومين ؛ لأنه :

أولاً : يوم أن شدد فى دعوته على « التوحيد » ومتامة « الشرك » فى العبادة .. قصد إلى رفع الازدواج والثنائية فى تحديد مصير الإنسان ، وفى توجيهه ، وإلى المساواة ــ فيما عدا الله ــ بين الناس ، فليس بينهم معصوم سوى رسول الله ــ ﷺ ــ ..... ، والجميع بعد ذلك سواء فى جواز الخطأ والصواب فى تفكيرهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم .

ومعنى ذلك : أنه ليست هناك حكومة إلهية من مجموعة من الناس أياً كان إخلاصهم فى العبادة لله ، وأياً كانت منزلتهم منه ، إذا أخذت بتعاليم القرآن ، واتبعت مبادئه فى سياستها . فهى حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب . ولذا ــ عند النزاع فى الأمر مع القائمين على شأن الحكومة الإسلامية ــ فالقرآن يطلب العودة بالنزاع بين الطرفين ــ طرف الحاكمين وطرف المحكومين ــ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ التى تعبر عنه ، توضيحاً أو تطبيقاً .. يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ

ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا
بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ
تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1]

فهنا يأمر القرآن المؤمنين جميعاً من أولى الأمر وغيرهم بأربعة مبادىء :

أولاً : بأداء الأمانات إلى أهلها ، وفى مقدمتها أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته لمن يولى عليهم ، وبالأخص ، العمل طبقاً لما جاء فى كتاب الله .

ثانياً : بمباشرة العدل فى الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية فى الخصومة .

ثالثاً : بالطاعة لما لله من قوانين ومبادىء فى صورة أوامر ، أو نَوَاهٍ ، أو وصايا .. وطبقاً لما جاء فى كتابه الكريم ، وفى سنة رسوله ﷺ قولاً ، وعملاً .

رابعاً : بالاحتكام إلى ما لله فى القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ من مبادىء وأحكام وتطبيق عملى ، عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر منهم .

(١) النساء : ٥٨ ، ٥٩ .

فطلب القرآن الكريم رجوع المؤمنين جميعاً إلى ما لله فى الكتاب والسنة ـ ما بين ولى أمر ، ومن عداه فى الجماعة ـ يوضح فى غير إبهام ؛ أن أصحاب الحكم والولاية العامة فى الجماعة المؤمنة لا يرتفع مستواهم إلى « العصمة » عن الخطأ ، وإنما يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب ، فى الشئون الدنيوية .

وإذا كانت دعوة التوحيد فى الألوهية فى الإسلام ، تستهدف المساواة ـ فيما عدا الله ـ بين الناس فى الاعتبار الإنسانى ، وفى البقاء فى المستوى الإنسانى ، وفى المشاركة فى خصائص الإنسانية من الصواب والخطأ .. فإنه **ليس هناك مكان فى جماعة المؤمنين ، أو فى المجتمع الإسلامى ، إلى نزاع حول السلطة** ، على أساس : أن بعض المجموعات فى المجتمع يتميز عن المجموعات الأخرى على أساس غير إنسانى . فهذه مجموعة لها قداسة ، ولقولها عصمة .. وهذه مجموعة أو مجموعات أخرى ليست لها قداسة ، وليست لأقوالها عصمة ، كما هو تصوير مبعث النزاع بين الكنيسة والدولة فى الفكر الأوروبى .

كذلك : دعوة القرآن ، إلى أن الدنيا دار اختبار وابتلاء ، وأنها مرحلة أولى تسبق مرحلة الآخرة . لا تعنى إطلاقاً : « شَرِّيَةَ » هذه الدنيا ، ولا « الانصراف » عن متعها وزينتها ، ومن ثم لا تعنى أن الاشتغال بها أمر قليل الشأن فى ذاته ، وأقل شأناً من الاشتغال بدين الله : إن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ وله حظه فى الإسلام وفى الدعوة إلى دين الله ـ كان يباشر أمراً من أمور الدنيا .. فى التجارة . حتى بعد أن

ولى الخلافة أراد الاستمرار فى النزول إلى الأسواق ومباشرة تجارته ، حتى لقيه عمر ــ رضى الله عنه ــ ونصحه بالإعراض عن ذلك ، طالما هو فى شغل بأمر المسلمين ، ثم جمع الصحابة وسألهم أن يقرروا له فى « بيت المال » ما يسد حاجته . فقرروا له ما يكفيه وأسرته .. فلو أن التجارة مثلاً كشأن من شئون الدنيا شرٌّ ، أو أمر بخس فى نظر الإسلام إلى الدنيا لما أقبل عليها مسلم له قدم راسخة فى الإسلام كأبى بكر ــ رضى الله عنه ــ ، واتخذ منها مصدر رزقه ومعيشة أسرته ، فضلاً عن أن يرغب فى الاستمرار فى ممارستها بعد أن ولى أمر المسلمين .

واستنكار القرآن لتحريم زينة الدنيا ، وتأكيده ــ بعد هذا الاستنكار ــ حلَّ ما فى الدنيا من طيبات من الرزق وزينة فيها للإنسان ، فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

هذا وذاك يدل على أن المتع المادية ليست شراً ، وأن المادة ليست بخسة يجب تجنبها ــ أو على الأقل ــ يجب أن ينظر إليها فى احتقار

---

(٢) الأعراف : ٣٢ ، ٣٣ .

وازدراء ، كما ينظر لمن يباشر العمل فيها بنظرة أقل . وما أعلنته الآية الثانية هنا من محرمات أخرى فى مقابلها ، وهى : ارتكاب المنكرات ، والظلم ، والانحراف ، والشرك بالله ، والاختلاق فيما يوصف به ــ وهى أمور معنوية ترتبط بالسلوك والتصرف ، والاعتقاد للإنسان ــ يؤيد أن ماديات الحياة الدنيا فى وضع سائغ ومقبول يحمل على استحسانها والرضا بها والسعى إليها من الإنسان نفسه . وطلب القرآن صراحة ألا يكون أداء العبادة عاملا على تجاهل الدنيا ، وعدم الحركة فيها لتحصيل الرزق ، كما لا يكون السعى فى الدنيا شاغلا عن أداء العبادة فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(٣)

فأداء العبادة له منزلته فى الإسلام . وأداء السعى فى تحصيل متع الحياة له منزلته فى الإسلام كذلك ؛ لأنه إذا كانت العبادة تحمل على استقامة الأسلوب فى تحصيل متع الحياة ، فإن تحصيل هذه المتع بسعى الإنسان يعين ــ بدوره ــ على الاستمرار فى العبادة .

والشىء الذى يحول الإسلام دونه عند تحصيل متع الحياة هو الإسراف فى الاستمتاع بها ؛ لأنه يترتب عليه ؛ إما متع الآخرين من

(٣) الجمعة : ٩ ، ١٠ .

حقهم فى الحياة ، وإما الإساءة إلى الذات نفسها بكثرة ما تستمتع به ، يقول الله ـ تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾(٤) .

فينهى عن المبالغة فى الاستمتاع بالأكل والشرب أى بمتع الحياة الدنيا ، ولكنه لا ينهى عن تحصيلها والاستمتاع بها .

وتقدير الدنيا ـ فى نظر الإسلام ـ على أن متعها أمر مرغوب فيه لا يجعل شئونها فى سياسة الدولة أمراً بخساً ـ وبالتالى لا يكون للعلمانية ـ بمعنى التنافس على السلطة لمجموعتين مختلفتين فى الاعتبار ، وفى شأنين غير متساويين فى التقدير كما هو مفهوم العلمانية فى مرحلتها الأولى ـ مكان فى الإسلام . **فمشكل التنافس** ، **فالخصومة بين المتنافسين غير قائم وغير وارد أصلا فى الإسلام** ، وطالما لا يرد مشكل فى نظامه ، فليس لحله كذلك موضوع فيه .

وثانياً : يوم أن وجه الإسلام دعوته إلى أهل الكتاب بقوله :

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾(٥) .

---

(٤) الأعراف : ٣١ .

(٥) آل عمران : ٦٤ .

فطلب إليهم الاتفاق على احتفاظ الإنسان بسيادته وكرامته ، وذلك بألا يعبد الإنسان سوى الله وحده . فلا يعبد الطبيعة وما فيها من كائنات . ولا يعبد إنساناً فرداً ، أو ممثلا لجماعة ، كمجتمع ، أو دولة ، أو حزب .. يوم أن ناداهم على الاتفاق على هذا المبدأ ، لم يكن مستأثراً – وحده – بالسلطة ، كما لم يكن مهيناً للبشرية ، ولا مستذلا للإنسان .

إن دعوة عدم الشرك بالله ، وإن دعوة عدم تأليه الطبيعة ، وإن دعوة عدم خضوع الإنسان للإنسان الشخصي أو المعنوي – في تواضع العابد ومذلته – هي دعوة لإبعاد الإنسان عن مصدر المذلة ، وللاحتفاظ بالمساواة في الاعتبار البشري – وإذا عبد الإنسان الله – وحده – فإنما يتقرب بعبادته إياه إلى محاكاة قيم عليا تصور صفاته – جل شأنه – وهي صفات الكمال : في العلم ، والخلق ، والقدرة ، والحياة ، والتدبير ، والإرادة ، والغنى بالذات .. إلى آخر صفاته التي يتحدث عنها القرآن الكريم ، ومن شأن محاكاة مثل هذه القيم العليا في ذات الإنسان العابد لله – وحده – تأكيد سموه الإنساني واعتباره البشري .

وبتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب – على هذا النحو – ليكونوا على قدم المساواة مع المسلمين في المحافظة على البشرية من الإهانة والمذلة ، وفي ممارسة حق الاعتبار الإنساني في غير خشية ولا خوف . **لم يكن الإسلام إذن ذا نزعة انفرادية في تولي سلطة ، ولا ذا ميل متطرف للقضاء على معارضة المعارضين** ، وبذلك يقضي القرآن الكريم في

دعوته على نزعة الاستئثار بالسلطة لفريق من الناس دون فريق آخر ، وهى تلك النزعة التى كانت الدافع إلى العلمانية فى مرحلتها الثانية ، وهى مرحلة اليسار المتطرف .

* * *

وبعد ذلك :

إذا لم يكن فى الإسلام ازدواج فى السلطة ، ولا ثنائية فى شئون الحياة ..

وإذا لم يكن الإسلام ذا نزعة استشارية ، على نحو ما كان يحرك الفكر العلمانى الأوروبى ، فإن الإسلام من جانب آخر إذا أقام نظامه للحياة الإنسانية على مبادىء عامة ، فإن من بين هذه المبادىء :

مبدأ (الحركية) وهو الاجتهاد كما كان يسميه محمد إقبال ، ومبدأ الاجتهاد ، مع مبدأ ختم الرسالة الإلهية بالرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما كان يذكر إقبال أيضاً ـ يتيح للإنسان المؤمن ممارسة استقلاله فى إطار هذه المبادىء العامة التى جاء بها الإسلام ، للبحث عن ملاءمة الأحداث المتجددة فى حياة الإنسان المتطورة ، **فليس مبدأ الاجتهاد إلا تأملا وتفكيراً فى تكييف الوقائع التى لم تقع من قبل .** وليس إلا إرجاعها إلى مبدأ أو آخر من تلك المبادىء العامة التى تحكم التشريع .

أما ختم الرسالة الإلهية ، واعتقاد انتهائها ، فإنه يشعر الإنسان بمدى استقلاله ، ويحول بينه وبين أن يترقب إملاء آخر له فى وقت آخر

لاحق ، وهو إذ يمارس الآن هذا الاستقلال فى التفكير ، فإنه لا يكون مرتبطاً إلا بتلك المبادىء الموضوعية والعامة ، وهى التى تحدد نظلم الحياة للإنسان فى جوانبها المتعددة : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والمالية ، والأسرية ، والتوجيهية .

١ ــ فسياسة الحكم فى الإسلام تقوم على (الشورى) وعلى (الرعاية) وليست على السلطة والتحكم ، ففى مبدأ الشورى يقول الله ــ تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٦) .

ويقول فى صفات المؤمنين :
﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾(٧) .

وفى شأن الرعاية يقول الحديث الشريف : (**كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته**) وكما تحمل الشورى معنى المساواة فى تبادل الرأى .. تحمل الرعاية معنى العطف ، وتجنب التحكم بالأولى كذلك .

---

(٦) آل عمران : ١٥٩ .

(٧) الشورى : ٣٧ ، ٣٩ .

٢ ـ والاقتصاد فى الإسلام لا يقف عند حد العمل فى الزراعة والتجارة وحدهما وإنما معهما الصناعة ، كما يستفاد من قول الله ـ تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٨]

كما تقوم المعاملة فيه على حرية العقد ، والبعد عن الغبن فيه ، ولو مترقباً كالغرر ، وتجنب الاحتكار ، كما هو مفصل فى فقه المعاملات التجارية ، والزراعية .

٣ ـ وفى الجانب الاجتماعى ، يفرض الإسلام (التكافل) كعبادة وقربى إلى الله ؛ بسد حاجة المحتاج ، والوقوف بجانب الغارم فى سبيل مصلحة عامة ، أو تحت ظروف غير إرادية ، وبمعاونة الإنسان على استرداد حريته واعتباره البشرى ، كحق طبيعى له ، وبتعويض المدافع عن المثل العليا للمجتمع ، كما جاء فى تحديد « مصارف الزكاة » .

٤ ـ وفى جانب المال : ينظر الإسلام إلى المال فى « ملكيته » على أنها ملكية خاصة ، وفى منفعته على أنها منفعة عامة ، تأسيساً على مبدأ استخلاف الإنسان على ما لله أصلا ، والإسلام يختلف بنظرته هذه إلى المال ، عن نظرة الرأسمالية التى ترى : أن الملكية الخاصة تستتبع المنفعة الخاصة له . وكذلك عن نظرة الاشتراكية فى مفهوم (البلشفية) التى

---

(٨) الحديد : ٢٥ .

ترى : أن تحقيق المنفعة العامة للمال تستوجب الملكية العامة له ، أى يستوجل إلغاء الملكية الخاصة ، فالآية التى تطلب إلى المؤمنين الحجر على السفهاء بينهم ، وسحب أموالهم الخاصة من تحت أيديهم فى قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ **(وهى فى الواقع أموال السفهاء الخاصة وتحت أيديهم)** الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا **(أى جعل للمسلمين جميعاً فى هذه الأموال الخاصة ما يقيم حياتهم ومعيشتهم)** وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٩)

هذه الآية التى تحدد هذا الإجراء فى أموال السفهاء على هذا النحو ، إنما تجعل هذا الإجراء خدمة للمصلحة العامة ، وفى الوقت نفسه ، هو دليل على أن حق من لا يملك المال فى المجتمع الإسلامى ، هو قائم فعلا فى منفعة المال لمن يملكه ، وكذلك قول الله جل شأنه :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ **(أى فى الرزق وهو الآن بيد المالكين له) سواء (أى فصاحب المال ، ومن لا يملك المال من الأتباع سواء فى ارتباط منفعة أى منهما بالمال الموجود فعلا بيد مالكه والمفضل فيه عن غيره)** ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١٠) .

---

(٩) النساء : ٥ .

(١٠) النحل : ٧١ .

آى إذا لم يؤمن هؤلاء الذين فضلوا فى المال والرزق ، بأن الذى يعطونه مما تحت أيديهم من الرزق لأتباعهم الذين لا يملكون شيئاً ـ ولا يحق لهم أن يملكوا الآن ؛ لأن حريتهم فى التملك مسلوبة ـ ليس من رزقهم هم كمفضلين فى الرزق ، وإنما هو من حق أتباعهم الذين لا يملكون فى مالهم هم .. إذا لم يؤمن هؤلاء الذين فضلوا فى المال والرزق بحق أتباعهم فى منفعة أموالهم فإنهم عندئذ يكفرون بنعمة الله .. يكفرون أولا بأن المال أصلا هو لله ، ويكفرون ثانياً بمنع الحق عن أن يصل إلى صاحبه .

قول الله هذا يسوى ـ على سبيل القطع ـ فى منفعة المال بين من يملكه ، ومن لا يملكه على وجه التأكيد .

وبتبنى الإسلام لهذه النظرة فى المال ، يحول دون التواكل واللامبالاة فى العمل فى الملكية العامة كما فى النظام البلشفى ، ويحد من الأنانية والاندفاع فى فتنة المال ، وإغرائه على العبث والفساد فى الملكية الخاصة كما فى النظام الرأسمالى .

٥ ـ وفى الأسرة : يحرص الإسلام على التضامن بين أعضائها :

أولاً : عن طريق الشورى ، والرعاية المتبادلة بينهم كمجموعة من المؤمنين ، لعموم قول الله ـ تعالى ـ : **﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾** ولعموم ما جاء فى الحديث : (**كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته**) .

وثانياً : بالتزام القادر من أعضاء الأسرة بنفقة الضعيف فيها :

لصغر فى السن ، أو لشيخوخة فيه ، أو لعجز ، أو لحائل يحول دون العمل والسعى فى سبيل الرزق .

وثالثاً : بإسناد أمر التوجيه وتنفيذ ما استقر عليه الأمر إلى الرجل كزوج ، أو أب : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[11] .

فقوامة الرجل فى إرادتِهِ فى التوجيه والتنفيذ معاً ، وفى قدرته وطاقته على السعى فى سبيل الرزق والعيش ، وهى إرادة وطاقة من طبيعته الخاصة ، التى لم يخلق لها ثديان ، ولا تتعرض طول حياتها للحمل والولادة .

والإسلام كدين ، يفخر بالحفاظ على وحدة الأسرة ، لا لأنه يميل إلى النظام القبلى ، أو هو قائم عليه ـ كما قد يدعى ـ ولكن لأن وحدة الأسرة هى القوة الأولى فى المجتمع الإنسانى ، فى تماسكه وبقائه . وفى الوقت الذى تعيب فيه بعض النظم العلمانية على الدين ـ كدين ـ العناية بأمر الوحدة فى الأسرة فى الدين ـ وهى وحدة طبيعية ـ تسعى هذه النظم إلى خلق « وحدة » عوضا عنها من (خلية) جماهيرية لا تعدو الصلة بين أعضائها أن تكون (الدفع) إلى ما يسمى (بالتلاحم) وهو تلاحم بدنى يبقى ما بقيت القوة فى الدفع نحوه .. ولكنه سرعان ما يتبدد إذا ضعف الدافع والممسك به ؛ لأن الرباط عن

---

(١١) النساء : ٣٤ .

طريق (الفكر المادى) يبقى فى حدود الأنانيات ، ويستحيل عليه أن يصهرها فى وحدة جماعية نفسية .

٦ ـ وفى جانب التوجيه : لا يرى الإسلام الإكراه ، ولا ما يتنافر مع طبيعة الإنسان ، من عوامل التوجيه له ، إنه لا يلزمه بأمر ما ، وإنما يضع أمامه الدعوة إلى مبادئه ، وله مطلق الحرية .. والمشيئة فى الإيمان أو عدم الإيمان بها . ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[١٢] ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[١٣] . فإن امن فهو يلتزم من ذاته بما امن به فى التوجيه ، والسلوك ، والمواقف ؛ فلا يلزمه تتبع البوليس ، ولا إرهاب الأجهزة السرية الأخرى ، ولا سلطة القانون . ولذا : **فالدولة فى الإسلام دولة إنسانية أخلاقية ، وليست دولة بوليسية .**

---

(١٢) البقرة : ٢٥٦ .

(١٣) يونس : ٩٩ .

العلمانية فى التطبيق

ولكن فى التطبيق نلاحظ فى أوروبا :

أولا : أن البلاد الأوروبية التى أخذت بفكرة العلمانية فى مرحلتها الأولى :

لم تزل ترعى المسيحية كدين ، بالإسهام – من ضرائب الدولة نفسها – فى مساعدة التعليم الدينى فى مدارس الجمعيات الدينية ، وهى لا تحول إطلاقاً دون أن ينتشر التعليم الدينى فى المدارس الخاصة ، وإن كانت لا تعد كثيراً بالمساعدات المادية خشية من احتكاك السلطات الدينية المتعددة مع الدولة ، إن بدا أنها تؤثر مثلا بقليل أو بكثير بعض الكنائس دون بعض ، على نحو ما عليه الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فالدولة الاتحادية تعترف بثلاث سلطات دينية : سلطة الكنيسة الإنجلية ، وسلطة الكنيسة الكاثولوكية ، وسلطة الحاخامية اليهودية .

ولم تزل تدخل نفسها ضد ما يظن أنه يمس شئون الكنيسة من قريب أو بعيد : **ففى سنة (١٩٥٨) كتبتُ أنا ثلاث مقالات** فى مجلة الأزهر عن **المستشرقين والمبشرين** ، اعتبرت بعض دوائر الفاتيكان أنها تنطوى على بعض الإحراج لشئون التبشير الكاثوليكى على وجه الخصوص ، فكان أول احتجاج وصل إلى وزارة الخارجية المصرية هو احتجاج سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ، تلاه احتجاجات أخرى

عديدة من السفارات الغربية ، التى تمثل فى بلادها أكثرية بروتستنتية أو كاثوليكية على السواء .

وكذلك لم تزل الدولة العلمانية الغربية ترعى المسيحية كدين ، والكنيسة كسلطة دينية ، بالحرص على جباية الضرائب الخاصة بالكنيسة عن طريق أجهزتها الإدارية ، وعلى حماية أملاكها ، وتمكينها من مباشرة رسالتها .

وهدف الدولة العلمانية فى فصلها عن السلطة الدينية هو ـ إذن ـ اتقاء الاصطدام معها . وليس محاولة تخريب قيمها الدينية ، ولا محاولة الاعتراض على ما تراه السلطة الدينية من واجبات وطقوس وشعائر ..

وحتى رجال الدولة أنفسهم فى ممارستهم السياسة العامة للمجتمع .. يخضعون فى ظروف معينة لملاءمة أنفسهم مع تقاليد الكنيسة ، وعلى سبيل المثال : دوق أوف وندسور ، وأنتونى إيدن ، فى انجلترا : كلاهما اضطر إلى ترك الوظيفة العامة أو إلى عدم السعى إليها ، لأن سلوك كل منهما فى حياته الزوجية لا يتفق مع ما تراه الكنيسة من تقاليد فى الزواج . والجنرال (ديجول فى فرنسا) أقال وزير التربية الاشتراكى فى وزارته الأولى ـ بعد أن عاد للحكم فى المرة الثانية ـ بسبب عدم موافقة الوزير على مساعدة المدارس الدينية فى فرنسا ، من مدارس الجزويت ، والفرير ، بمبلغ ستين مليونا من الجنيهات الاسترلينية فى ميزانية سنة (١٩٦٣) ، من غير حق التفتيش عليها من قبل وزارة التربية .

(وجون كنيدى) فى انتخاب الرياسة فى الولايات المتحدة لم يفز على ريتشارد نيكسون فى سنة (١٩٦٠) إلا بنسبة ضئيلة ؛ نظرا لأنه ينتمى إلى الأقلية الكاثولوكية ، وخرج فى ترشيحه عن التقليد المتبع هناك .

وحياد الدولة الذى بشرت به العلمانية فى البلاد الغربية ، وكذلك المساواة فى الحقوق والاعتبار فى ظل هذا الحياد ، تنقضُهُ التفرقة العنصرية فى مجتمعاتها ، كالمجتمع الأمريكى فى الولايات المتحدة مع الزنوج ، والمجتمع الانجليزى فى انجلترا مع المستوطنين والوافدين من دول « الكومنولث » فتشريع عديد من الولايات فى أمريكا ، لا يسوى بين البيض والزنوج ، ويتعارض مع حياد الدولة الفيدرالية ، الذى هو إحدى نتائج العلمانية ، كما يدعى . وتشريع البرلمان الانجليزى الخاص بترحيل بعض القادمين من بلاد (الكومنولث) وإعادتهم إلى بلادهم ، وبوضع قيود خاصة فى سبيل الإقامة فى انجلترا لمن يفد من هذه البلاد ، لا يتفق مع علمانية الدولة وفصلها عن الكنيسة والدين ، إذ أخص من وضعت القيود فى سبيلهم ، هم أصحاب الرعية الباكستانية ، والسبب ـ كما ذكرته بعض الصحف البريطانية ـ هو الفارق الملموس بين نظام الأسرة وسلوك أفرادها فى الإسلام ، وذلك النظام الآخر الذى هو للأسرة المسيحية : ذكرت هذه الصحف على سبيل المثال من ذلك : الزواج بأكثر من واحدة ، وصيام رمضان ، والرغبة فى كثرة الأولاد .

وقد تجاوز أمر « حياد » الدولة ـ كنتيجة للعلمانية ـ من بلاد

اسكندنافيا الكنيسة كسلطة ، واعتقاد الدين وممارسة طقوسه كأمر شخصى ، إلى السلوك الشخصى للأفراد : فالدولة فى أى من هذه البلاد تقف الآن موقف الحياد فى العلاقات الجنسية ، وعن هذا الموقف :

شاع زواج « المجموعة » .

وابتدأ حل زواج الأخ بأخته .

وأصبح من حق التلميذ والتلميذة أن يعرفا فى مراحل الدراسة ـ منذ الثامنة ـ صورة المعاشرة الجنسية ، والحمل ، وتطور الجنين حتى الولادة ، من أفلام ورسوم تعرض عليهم .

كما أصبح من حق الشباب والشابات زيارة معارض جنسية تقام فى أماكن عامة يطلعون فيها على الصور المتنوعة للجنسين ، وعلى كتب الجنس ، وأفلام الحب « المكشوفة » كما يسمونها .

وزواج التجربة ـ وهو المعاشرة الجنسية بين الفتى والفتاة قبل الزواج ، وقد لا يصل الأمر بعد ذلك إلى الزواج ـ تقليد مسلم به الآن فى البلاد العلمانية ، سواء فى الشرق أم فى الغرب ، وقلما يعترض عليه أبو الفتاة أو أمها .

والزنا لم يعد سببا لطلاق الزوج من زوجته فى الدانيمارك باعتبار أنه أمر شخصى كذلك .

ودولة الفاتيكان ـ فى الطرف الآخر كممثلة للسلطة الدينية ـ لم تزل تقوم من جانبها بدور كبير فى سياسة البلاد التى فيها أغلبية كاثولكية عن طريق الأحزاب السياسية التى تسمى (بالديمقراطية المسيحية)

وكذلك فى السياسة الدولية العالمية ، فالأحزاب الديمقراطية المسيحية هى أجهزة للعمل على رسم الخطة لتنفيذ اتجاه الفاتيكان فى الدرجة الأولى ، وعن طريقها حالت الكنيسة حتى الآن دون أن تتطرف العلمانية إلى النوع اليسارى الآخر الذى يقيم « البلشفية » دينا بدل المسيحية .

ثانيا : يلاحظ أن إلغاء المسيحية فى الشرق الأوربى ، وتعويضها بالبلشفية تحقيقا للعلمانية ـ بمفهوم الاستئثار والتفرد بالسلطة فى الدولة ـ لم يحقق الهدف الذى استهدفته الماركسية اللينينية حتى الآن ، وهو تحويل البلشفية إلى (دين الدولة) ليرتبط به المواطنون من أى مجتمع اشتراكى دون أى رباط آخر من النزعة إلى القومية ، أو الميل إلى الدين السائد قبل التحول الاشتراكى : فالقوميات وكذلك الاتجاهات الدينية السابقة ، ما زالت تلعب دورها فى تعويق سير (العالمية) التى تشيد بها الثورات الماركسية ، فإعادة تقسيم تشيكوسلوفاكيا إلى ولايات فيدرالية ، بعد أغسطس سنة ١٩٦٨ ، وكذلك مشروع الدستور الجديد فى يوغسلافيا بتقسيم البلاد من جديد إلى ولايات اتحادية ، وعدم تعيين رئيس للجمهورية بعد المارشال تيتو ..

يصور [كل ذلك] على الأقل : أن النزعة القومية ظلت قائمة وقوية ، وأن مظهر (العالمية) التى قصدت إليها العلمانية بمفهوم إلغاء المسيحية .. هو مظهر يفرضه سلطان القوة فى الدولة ، وليس تعبيرا عن التحول إلى الماركسية .. هو دستور يتلى ، وليس واقعا يحس ..

ثالثا : فى الدول الإسلامية :

يلاحظ أن تركيا هى الدولة الإسلامية فى الشرق التى أعلنت العلمانية الغربية كأساس لسياستها الجديدة ، منذ تولى مصطفى أتاتورك السلطة فيها بعد الحرب العالمية الأولى . والسياسيون فى الغرب على الخصوص ـ ومعهم المستشرقون فى بحوثهم وكتاباتهم ـ يشيدون بتقدم صناعى علمى فيها ، ويعودون بأسبابه إلى دخول تركيا مجال الغرب بدون إسلام ، ففصلها بين الإسلام ـ كدين ـ والدولة ، هو العامل فى نظرهم الذى قربها من الدولة المتطورة .

إن تركيا فى قبولها للعلمانية كانت مجبرة فى تسوية الصلح الذى دار وراء الكواليس مع الحلفاء ، بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى ، وقصد الحلفاء من إعلان تركيا العلمانية ، وفصل الإسلام عن الدولة ـ وهى مركز الخرفة الإسلامية ـ أمرين :

الأمر الأول : إلغاء الخلافة الإسلامية ، كأداة تجميع للمسلمين : عرب ، وعجم على السواء فى آسيا وأفريقيا ؛ إذ سيترتب على إلغاء الخلافة إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون بالعربية ، وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية ، وعندئذ يمكن التبشير بالقومية العربية كذلك لتوسيع الهوة بين المسلمين .

ثم لكى لا تكون للقومية العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غير العرب من المسلمين ـ [و] يتضح [ذلك] بقيام « جامعة دول عربية » لتؤكد سيادة كل دولة عربية فى مواجهة دولة عربية أخرى ـ وبذلك يضعف الترابط على أساس اللغة العربية والتى

اعتبرت وحدها ـ دون الإسلام ـ حجر الزاوية فى مفهوم القومية العربية ، وشأن العرب الآن بعد قيام الجامعة العربية يساوى شأن غير العرب [من] من المسلمين فى تفرقهم على أساس من لغاتهم الوطنية العديدة .

وإبعاد المسلمين غير العرب عن العرب بالتبشير بالقومية العربية بعد إلغاء الخلافة الإسلامية ، ثم إضعاف فاعلية القومية العربية بين العرب من جديد بقيام جامعة دول عربية يؤكد استقلال كل دولة ويلاحظ أن هذا وذاك ، كان مقدمة ضرورية لعزل فلسطين عن قوة المسلمين مجتمعين ، وعن قوة العرب ـ وحدهم ـ مجتمعين كذلك ،..

.... كان تمهيدا لقيام دولة إسرائيل .

الأمر الثانى : الذى قصده الحلفاء المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى ـ وهم أصحاب العلمانية الغربية ـ من إعلان تركيا للعلمانية .. عزلها عن التراث الإسلامى ، وتكوين أجيالها القادمة فى بعد عن الصلة بالإسلام وعن العرب معاً ؛ وبذلك تصبح تركيا المسلمة قريبة إلى الغرب فى ميوله واتجاهاته ، على نحو ما أبعد الإسلام من أسبانيا ، ومن البلقان ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، ولكى يتم التحول عن الإسلام كانت كتابة اللغة التركية بحروف لاتينية بدلا من الحروف العربية .

والتقدم الصناعى والعلمى فى تركيا العلمانية لم يكن بسبب الفصل بين الدين والدولة أى لم يكن بسبب إبعاد الإسلام عن شئون

الدولة ، وما تجر إليه مبادئه ـ كما يقال ويدعى ـ من التخلف ـ وإنما كان مكافأة من الغرب والشرق على السواء لتركيا على إبعادها للإسلام .. كما كان أولا وأخيراً بسبب المساعدات الأجنبية التى قدمت لتركيا من جانب الاتحاد السوفيتى فى الشرق ، والولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص من الغرب ، وهى مساعدات اقتصادية وفنية وعلمية ، لتتحول إلى نموذج بين البلاد الإسلامية .

فالاتحاد السوفيتى له مصلحة داخلية وخارجية فى كون تركيا بلدا علمانيا : فمصلحته الداخلية فى إخضاع البلاد الإسلامية الآسيوية ، وفى بلاد القوقاز على الخصوص ـ لـ « الإيديولوجية » الجديدة وهى « إيدلوجية البلشفية » أو « إيديولوجية إلغاء الدين » ، والإيمان بالدولة وحدها . فإذا أصبحت تركيا بلدا علمانيا ـ ومعظم المسلمين فى بلاد القوقاز هم من الأتراك ـ كان من اليسير على الأجيال الناشئة لهذه البلاد أن تخضع للدين الجديد ، لا بحكم الجوار ولا صلة القرابة فقط ، وإنما : لأن تركيا [التى] كانت مركز الخلافة ، وكانت على رأس الإمبراطورية الإسلامية قد أعلنت ـ الآن ـ عزل الإسلام عن شئون الدولة ، وأخذت لنفسها طريقا جديدا فى الحياة ، هو طريق ممهد على الأقل للعلمانية الماركسية ، إذن لابد أن يكون الإسلام عامل تخلف ، هكذا المنطق !!.

وللاتحاد السوفيتى مصلحة خارجية كذلك فى كون تركيا بلدا علمانيا ، هى إمكان التأثير بهذا النموذج على بلاد أُخَرَ إسلامية

مجاورة من آسيا : كإيران ، وأفغانستان ، فتضعف من علاقتها بالإسلام ، وبذلك تصبح مجالا حيويا للاقتصاد والأمن السوفيتي . والاحتلال الروسي القيصري لإيران في فترة من الزمن ، وحمله على إنشاء « البهائيين » أو « البابيين » فيها تخريبا للقيم الإسلامية .. يعلن عن مدى التطلع الروسي إلى هذه البلاد الإسلامية منذ وقت طويل قبل الثورة البلشفية في ثورة سنة ١٩١٧ م .

والغرب له مصالح اقتصادية عديدة واستثمارات مالية كبيرة في البلاد الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، ومن شأن قبول هذه البلاد للعلمانية أن يسهل للغرب طريق الحركة في سبيل الاستغلال الاقتصادي ، سواء أكان من مصادر الثروة أم من دائرة الطاقة البشرية ، وكتاب : « الإسلام قوة الغد العالمية » لبول شمتز (سنة ١٩٣٦)[١٤] يوضح في غير لبس إمكانيات البلاد الإسلامية من الثروة الأرضية والمعدنية ، وتكاملها ، وطاقة المسلمين في الخصوبة الجنسية ، ويسر الارتباط بينهم على الإيمان بالله ، وينذر أوربا بالفناء ، إن هي مكنت المسلمين من التجمع واستخدام هذه القوى الثلاث ، ونداء هذا الكتاب الموجه إلى الأوروبيين بالإنذار يعبر عن عمق الرغبة الدينية في الحيلولة دون تجمع المسلمين على الإسلام .

وإن دفعت البلاد الإسلامية اليوم لسبب أو لآخر ، إلى قيود الاشتراكية ـ ليس بمفهومها في الغرب ، ولكن بمفهوم البلشفية ـ فإن

---

(١٤) قامت مجلة « الفكر الإسلامي » ببيروت بنشره على حلقات ، بترجمة الدكتور محمد شامة الأستاذ المساعد في كلية أصول الدين (في ذلك الوقت) .

هذه البلاد ستكون أكثر تمهيدا للاستغلال الاقتصادى ، وأكثر طواعية للتبعية الأجنبية ، وثورة كالثورة الثقافية فى الصين الشعبية كفيلة بمحو الإسلام فى زمن قصير جدا .

ومع كون تركيا بلدا علمانيا يفصل بين الإسلام والدولة فإنها بشأن حرية الأفراد فيها فى ممارسة العبادة الإسلامية .. لا تقل عن أى دولة إسلامية أخرى لا تعلن رسميا : الفصل بين الدين والدولة ؛ لأن ما أعلنته تركيا فى الأمس القريب من الفصل بين الدين والدولة ، مارسه الاستعمار الغربى فى الأمس البعيد عمليا ، وفى تدرج ، وفى إحكام ، وفى غيبة من الوعى الإسلامى ، فى البلاد العربية التى استعمرها . ولم يفلت أى بلد إسلامى أو أكثرية إسلامية فى آسيا ، وأفريقيا من الاستعمار الغربى ، ومن ممارسته العلمانية ، وإضعاف الإسلام فيها ، فالإسلام فى غالبية هذه البلاد أبعد :

١ ـ فى سياسة الحكم : فنظام الحكم اليوم فى سيره : إما علمانى غربى أى رأسمالى ، وإما علمانى شرقى ، أى بلشفى ماركسى .

٢ ـ وفى سياسة التوجيه والتعليم : يشار إلى الإسلام فى بعض مناهج المرحلتين الأولى والثانية ، ويغفل تماما فى التعليم العالى والجامعى ، حتى فى البلاد التى تعلن رسميا أنها تمارس الإسلام فى حياة المواطنين فيها .

٣ ـ وفى سياسة التشريع والقضاء : ما لم يلغه الاستعمار من مبادىء الإسلام أو مظاهره ، ألغاه الحكم الوطنى بعد الاستقلال .

٤ ـ وفى شئون الدعوة الإسلامية ألغيت الأوقاف الإسلامية .

٥ ـ وفى سياسة المال والاقتصاد لا يعنى فيها : إن كانت ملائمة أو غير ملائمة للمبادىء الإسلامية والاتجاه الإسلامى فى حياة المسلم .

٦ ـ ولم يبق إلا الأحوال الشخصية ، أحوال الزواج ، والطلاق والنفقة ، والحضانة ، والعدة ، إلى آخر موضوعاتها .. **فهل النداء بالعلمانية وصيحة من يسمون أنفسهم بالعلمانيين فى البلاد الإسلامية هى لإلغاء هذه الأحوال الشخصية ، لإلغاء المظهر الباقى من شخصية المسلمين ؟**

ولم يبق من الإسلام فى الأحوال الشخصية كفاصل بين المسلمين وغيرهم إلا أن المرأة المسلمة لا تتزوج بغير مسلم ، إذ الطلاق سعى إليه الغربيون والشرقيون واقتربوا فيه من الإسلام على درجات مختلفة ، فهل تنحصر العلمانية التى ينادى بها اليوم فى جواز زواج المسلمة بغير المسلم ؟

هل فى جواز زواج المسلمة بغير المسلم مصلحة للدولة ؟ وتحقيق للعالمية ؟ أم هو الاندفاع فى التقليد ؟

* * *

ورابعا : يلاحظ أخيرا : أن البلد الذى أعلن الإسلام دستورا له ، وقام كدولة على أساس منه ـ وهو باكستان ـ بقى له من مظاهر التخلف على عهد الاستعمار بعد استقلاله .. ما يفسر الآن بأن سببه الإسلام ، والتمسك به ، ويثير هذه القضية كثير من المستشرقين ،

مثل : (ويلفريد سميث) ، فى كتابه : « الإسلام فى التاريخ » فيوازن بين تركيا العلمانية وباكستان الإسلامية ، ويخرج من الموازنة بذكر : أن الإسلام بإبعاده عن الدولة كان السبب فى تقدم تركيا ، وباحتضانه وبتأسيس الدولة عليه كان سببا فى تخلف باكستان ، مع أن كلا من الدولتين أسيوية ، ولا تتكلم العربية كلغة أولى ، ولكن :

أولا : لأن باكستان بقيت فى صلتها بالإسلام ، بعد الاستقلال على النحو الذى كانت عليه فى عهد الاستعمار : أى أنها لم تشرع دستورا إسلاميا يعتمد فى مبادئه على القرآن والسنة الصحيحة ــ كما كان مرتقبا ــ تأخذ به فى جميع نواحى المجتمع الباكستانى كما لم تقم بنشاط غير عادى فى التوعية بالإسلام فى المدارس والأماكن العامة ، عدا ذلك النشاط فى المساجد ، وهو نشاط تقليدى . وإنما ظل الوضع فى سيره كما كان ، وكما هو فى أى بلد إسلامى آخر ، نالت من دينه علمانية الغرب فى عهد الاستعمار ، وبهذا لم يوضع الإسلام موضع التجربة كدستور ، وكقانون ، وكمنهج ، فى التربية والسلوك فى حياة المجتمع الإسلامى الباكستانى ، واستمرار الوضع السابق على عهد الاستعمار ، هو الذى هيأ للحركات اليسارية والانفصالية فى شرق باكستان وغربها اليوم : أن تقوى وتزداد فاعليتها .

ثانيا : لأن المصادر الأجنبية التى قدمت المساعدات الاقتصادية والفنية والعلمية لتركيا العلمانية ، ليس فى مصلحتها أن تقدم مثل هذه المساعدات الباكستانية المسلمة ، حتى لا يكون بوجودها فى [حال]

ازدهار عامل تحريض للدول الإسلامية الأخرى فى آسيا وأفريقيا : على تمسكها بالإسلام والسعى إلى الأخذ به فى مجالات الحياة المختلفة ؛ **إذ من المؤكد أن قوة الإيمان بالإسلام فى البلاد الإسلامية ، تشكل وحدها العقبة الأولى فى طريق تبعية هذه البلاد للايديولوجيات الأجنبية الغازية ، وبالتالى فى شعور هذه البلاد باستقلالها أمام الإغراء أو التهديد الخارجى ، كما يشكل الإيمان نفس العقبة فى طريق التوسع الإسرائيلى فى البلاد العربية ، ومحاولة إعلان العلمانية الغربية ، وتطبيق الاشتراكية البلشفية فى الوطن العربى هى محاولة تمهد لإسرائيل الاطمئنان على المستقبل والتوسع الاقتصادى والعلمى فى هذه البلاد ، كما تمهد للكتل الاستعمارية المنافسة على خيرات الشرق الأوسط ومركزه ، وأن تصل إلى نفوذ فيها .**

* * *

والآن ، لا يقال : إن الإسلام يحد من حرية الإنسان ، ويفرض الوصاية على الإنسان ، أو يكره الإنسان .. إن رسالته هى رسالة الإنسانية فى مستواها الفاضل .

والآن أيضا : ليس فى الإسلام « جمود » طالما كان الاجتهاد مبدأ أساسيا فيه ، وهو مبدأ ملاحقة التطور والوقائع المتجددة ، فى إدراجها تحت مبدأ من المبادىء العامة فيه .

والآن كذلك : ليس فى عقائد الإسلام تعقيد ، لأنه يفصل بين مستوى الله ومستوى الإنسان فصلا تاما : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ﴾[١٥]، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١٦] . فلا يختلط الإنسان فى خطئه وصوابه بالله فى قدسيته وحكمته .

والآن كذلك : ليس فى الإسلام أى باعث يبعث على ما يسمى : « بالتخلف » طالما لا يرى شرا فى الدنيا ، وفى الحياة المادية ، من أكل وشرب ، وزواج ، ونسل ، وزينة .. وإنما يرى الشر فقط فى « الإسراف » والغلو فى الاستمتاع بما فيها . وطالما ـ أيضا ـ يرى : أن الإنسان يحمل وزر نفسه وخطيئته وحدها : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[١٧] .. **فهو ينظر إلى الإنسان على أنه « وحدة » مستقلة ، تنطلق فى غير قيود من أخطاء سبقت ، وفى مسئولية شخصية فردية :**

.. لا وصاية ، بل استقلال ..

ولا جمود ، بل حركة .

ولا تخلف ، بل تقدم بالسعى والعمل فى الحياة الدنيا .. إنسانية خالصة .

---

(١٥) الشورى : ١١ .

(١٦) الأنعام : ١٠٣ .

(١٧) فاطر : ١٨ .

.. ومسئولية فردية واضحة .

.. عبادة لله وحده ، ومساواة بين الإنسان والإنسان .

.. وبشهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يتصل الإنسان بربه من غير وسيط .

.. وبالإيمان بالله يتحرر الإنسان من كل إلزام خارج عنه .

.. تلك أسس النظرة الإسلامية إلى الإنسان .

* * *

ولو كان الإسلام فى أوروبا ما نشأت العلمانية فى الفكر الأوروبى ، ولما وصل تفكير بعض المفكرين فى أوروبا إلى التطرف فى المادية ، والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد ، ودفعها إلى الانقلاب الدموى ، لحل بعض المشاكل الاجتماعية .

وإن طلب تطبيق العلمانية فى مجتمع إسلامى ، **من حاكم** ، هو لعدم أهليته للحكم ، وللهرب من المسئولية التى يلقيها الإسلام على الحاكم ، كحاكم ، فى طلب الاستقامة فى السلوك وأداء أمانة الحكم ، والعدل ، والشورى المتبادلة ، والرعاية ، وليس التسلط .

.. ومن **مفكر** ، هو لقصورهِ فى معرفة الإسلام ، وخداع نفسه وغيره بعرض قضايا ، يدرك أطرافها فقط ، دون جوهرها وغايتها .

.. ومن **سياسى** ، هو للتلاعب بالفكر غير الناضج ، والتمويه فى حلبة المنافسة السياسية .

.. ومن فتى وفتاة ، هو للتحلل من التزام الإيمان فى التوجيه ، والسلوك ، والانطلاق فى شهوة البطن ، والفرج ، والملبس ..

أتراد العلمانية فى شرقنا على نمط الفصل بين سلطة دينية وأخرى مدنية ؟..

ما هدف الفصل إذن ؟ .

أهو خلق لدولة داخل دولة ، وسلطة بجانب سلطة ؟.. أعندئذ تتم وحدة الأمة والمجتمع ؟ أم يزداد مصدر الاحتكاك ، بحكم المحافظة على البقاء ؟

أتراد العلمانية فى شرقنا على نمط إلغاء الدين وإشاعة الإلحاد لتنفرد الدولة بسلطانها ؟.. ما البديل عن الدين فى الدولة الآن ؟.. ما الدين الجديد ؟.. وقد رأيناه فى المرحلة العلمانية الثانية « السياسة » كما رأينا المعبود : « جماعة العمل » أو « المجتمع » أو « الدولة » .. وانتهى أخيرا : « بالحزب » .

(أ) أهو القومية العربية فى شرقنا ؟.. وما مضمونها ؟.. أهو تاريخ العرب وقد كونه الإسلام ؟.. أم هو اللغة الفصحى وليست موجودة إلا فى القرآن ؟.. أم هو اللهجة العامية ؟ وأية لهجة من اللهجات القائمة فى المحيط العربى هى التى تسود ؟!!

(ب) أهو الماركسية أو البلشفية ـ كما تسمى رسميا فى السياسة الدولية ؟.. وأى ضرب من ضربيها : أهو الضرب الأرثوذكسى منها الذى لا يهادن الرأسمالية ، أم ذلك النوع الآخر الذى يوصف من

أصحاب الضرب الأول بأنه « ردة » وهو الذى يضع التعايش السلمى كأسلوب للعلاقات الدولية ، وبدلا من عدم المهادنة ؟!!

وهل على لهجة عامية واحدة يمكن أن تجتمع الأمة العربية ؟ وهل فى نوع من البلشفة يؤمل فى أن تتحد ؟

* * *

إن النصيحة هى دراسة الإسلام أولا دراسة واعية ، وعلماء المسلمين ـ قبل عامتهم ـ عليهم أن يعيدوا دراسته فى كتاب الله ، ويستوحوا الرأى منه ، دون أن يفرضوه عليه .

الفهـــرس

● إهداء وتاريخ ٣
● مقدمة الكتاب ١١
● العلمانية والإسلام فى الفكر ١٥
● مفهوم العلمانية ١٦
● تصور توزيع الاختصاصات ١٩
● المرحلة الثانية للعلمانية فى القرن التاسع عشر ٢٩
● ماركس والمسيحية ٣٥
● الإسلام وموقفه من العلمانية ٤٧
● العلمانية فى التطبيق ٦١

